مكتبة

في وداع غابو ومرسيدس

مذكرات عن غابرييل غارثيا ماركيز ومرسيدس بارتشا

يرويها ابنهما رودريغو غارثيا

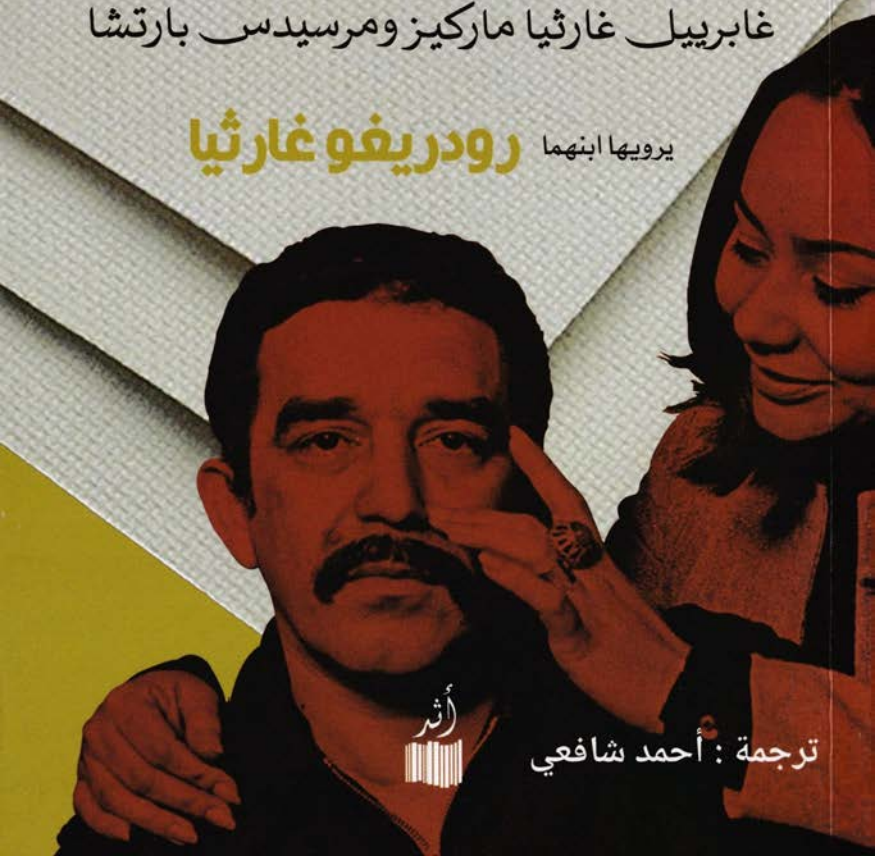

ترجمة : أحمد شافعي

أثر

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

في وداع غابو ومرسيدس

في وداع غابو ومرسيدس

تأليف: رودريغو غارثيا

ترجمة: أحمد شافعي

ردمك: 978-603-91810-8-8

رقم الايداع: 1443/7764

Copyright © 2021 by Rodrigo Garcia.

دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966549966668

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

مكتبة

t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

في وداع غابو ومرسيدس

مذكرات عن غابرييل غارثيا ماركيز ومرسيدس بارتشا

يرويها ابنهما

رودريغو غارثيا

ترجمة

أحمد شافعي

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى أخي

القسم الأول

عندئذ ذهب إلى شجرة الكستناء، وهو يفكر في السيرك، محاولًا وهو يتبوَّل أن يواصل التفكير فيه، لكن لم يعد بوسعه أن يعثر على الذكرى. غاص برأسه بين كتفيه مثل فرخ وليد، وبقي ساكنًا، مستندًا بجبهته إلى جذع شجرة الكستناء. لم تعثر عليه الأسرة حتى الحادية عشرة من صباح اليوم التالي حينما ذهبت صوفيا قديسة الرحمة لترمي القمامة وراء البيت فلفتت نظرها النسور وهي تحطّ.

مئة عام من العزلة[1]

(*) جميع الهوامش من وضع المترجم.

(1) مشهد وفاة الكولونويل أورليانو بوينديا، وقد اطلعت عند ترجمته على ترجمتي الأستاذين سليمان العطار (آفاق - 2014) وصالح علماني (المدى، 2005).

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

حينما كنت وأخي طفلين، أخذ أبي علينا عهدًا بأن نقضي ليلة رأس سنة 2000 معه. وذكَّرنا بعهدنا ذلك مرَّات عديدة خلال مراهقتنا، فكنت أجد من إصراره ذلك حرجًا. ثمَّ انتهيت إلى تفسيره بأنَّه أمنية لديه بأن يظلَّ حيًّا حتى ذلك التاريخ، فيبلغ فيه الثانية والسبعين، وأبلغ الأربعين، ويبلغ القرن العشرون نهايته. وكم كانت تلك اللحظات الكبرى تبدو شديدة البعد وأنا لم أزل في مراهقتي. ولمَّا كبرت أنا وأخي حتى صرنا راشدين، لم يعد ذلك العهد يذكر إلا نادرًا، ولكنَّنا اجتمعنا بالفعل في عشيَّة الألفيَّة الجديدة في المدينة الأحبّ إلى أبي، وهي قرطاجنة دي إنديا[1] قال لي أبي في حياء: «لقد كان بيننا اتفاق، أنت وأنا»، فلعلَّه آنذاك كان يجد هو نفسه بعض الحرج من إصراره. قلت «صحيح»، ولم نشر إلى الأمر بعدها قطّ. وعاش خمس عشرة سنة أخرى.

لمَّا بلغ أواخر الستينيَّات من عمره، سألته عمَّا يفكِّر فيه بالليل، بعد أن يطفئ المصابيح. قال «أفكِّر في أنَّ الأشياء تقريبًا انتهت»، ثم أضاف وهو يبتسم «ولكن لم يزل هناك وقت. فلا داعي بعد للإفراط في القلق». كان تفاؤله حقيقيًّا، وليس محض محاولة للتسرية عنِّي. قال «إن المرء يستيقظ في يوم من الأيَّام فإذا به شيخ. بهذه البساطة، دونما إنذار. يا له من أمر مذهل». وقال «سمعت قبل سنين أن الكاتب يأتي عليه في حياته حين من الدهر فلا

---

(1) كرتاخينا دي إنديا Cartagena de Indias بحسب نطقها الإسباني

يعود قادرًا على كتابة عمل روائيٍّ طويل. لا يستطيع الدماغ أن يسيطر على المعمار الهائل أو يمخر عباب المناطق الغادرة في رواية طويلة. وهذا صحيح. أستطيع أن أشعر به الآن. فلا مجال، بدايةً من الآن، إلا لمقطوعات قصيرة».

لَمَّا بلغ الثمانين سألته كيف يجد هذا العمر.

فقال: إنّ «المشهد من الثمانين مدهش، فعلًا، والنهاية قريبة».

«خائف؟»

«بل حزينٌ حزنًا طاغيًا».

حينما أرجع التفكير في تلك اللحظات، تجيش مشاعري حقًّا إذ أتذكَّر كم كان قريبًا، وأتذكَّر بصفة خاصَّة كم كانت أسئلتي قاسية.

2

أتصل بأمِّي في صباح يوم عمل من مارس سنة 2014، فتقول لي إنَّ أبي في الفراش مصاب بالبرد منذ يومين. ليس هذا بغريب عليه، لكنَّها تؤكِّد لي أنَّ الأمر مختلف هذه المرَّة. وتضيف أنَّه «لا يأكل، ولا ينهض. وليس كدأبه. فاتر. وهكذا بدأ الأمر مع ألفارو». ألفارو، الذي تشير إليه، صديق لأبي، من جيله، كان قد مات في السنة السابقة. نبوءتها أنَّنا «لن نخرج منها هذه المرَّة سالمين». لا ينتابني بعد المكالمة شعور بالخوف، فمن الممكن أن توعز نبوءة أمِّي إلى القلق. هي في مرحلة متقدِّمة من حياتها، يموت فيها الأصدقاء القدامى، بوتيرة متسارعة بعض الشيء. فضلًا عن ضربات ثقال نزلت عليها في الفترة الأخيرة بموت أخوين لها، هما من أصغر إخوتها وأعزِّهم. ومع هذا، تجنح المكالمة بخيالي. أهكذا تكون بداية النهاية؟

من المنتظر أن تأتي أمِّي، الناجية مرَّتين من السرطان، إلى لوس أنجلوس لإجراء فحوص طبيَّة، لذلك يستقر الرأي على أن يسافر أخي من باريس التي يعيش فيها ليكون بصحبة أبي في مكسيكو سيتي. وأكون أنا بصحبة أمِّي في كاليفورنيا. لا يكاد أخي يصل حتى يبلغه طبيب أبي الأساسيُّ المتخصِّص في القلب أنَّه، أي أبي، مصاب بالتهاب رئويٍّ وأنَّ الفريق الطبيَّ سيكون أكثر ارتياحًا إذا تسنَّى إدخاله المستشفى لإجراء مزيد من الفحوص. يتبيَّن أنَّه طرح ذلك الاقتراح على أمِّي طوال أيَّام قليلة على الأقلّ فلم يلقَ منها غير العزوف. لعلَّها كانت مرتاعة ممَّا قد يكشف عنه فحص طبيٌّ حقيقيّ.

3

تتيح لي مكالمات هاتفيَّة مع أخي خلال الأيَّام القليلة التالية أن أكوِّن صورة للإقامة في المستشفى. عندما يسجِّل أخي دخول أبي إلى المستشفى، إذا بالموظَّفة تثب واقفة من فرط الإثارة فور أن تسمع اسمه. «أوه، يا إلهي، أهو الكاتب؟ هل تمانع أن أتصل بأخت زوجي لأخبرها؟ لا بدَّ أن تعرف بهذا الأمر». يتوسَّل إليها كي لا تفعل، فتستجيب، على مضض. يوضع أبي في غرفة منعزلة نسبيًّا في نهاية إحدى الممرَّات حمايةً لخصوصيَّته، لكن في خلال نصف يوم فقط يمرُّ ببابه أطباء وممرِّضات ومساعدو تمريض وفنيُّون ومرضى آخرون وعمال صيانة ونظافة وربَّما أخت زوج الموظفة لاقتناص نظرة عابرة إليه. وفي ردِّ فعل على ذلك يقلِّل المستشفى المرور في تلك المنطقة. يبدأ الصحفيُّون أيضًا في التجمُّع أمام بوَّابة المستشفى الرئيسية، ويُنشَر خبر بأنَّه في حالة حرجة. لا مجال لإنكار ما قيل لنا عيانًا بيانًا: سيكون مرض أبي إلى حدٍّ ما شأنا عامًّا. ليس بوسعنا أن نوصد الباب تمامًا لأنَّ السبب في كثير من الفضول المحيط به هو الخوف والإعجاب والمحبَّة. حينما كنت وأخي ولدين صغيرين، كان أبي وأمِّي يقولان في حقِّنا على الدوام، سواء عن حقٍّ أم غير ذلك، إنَّنا أكثر الأطفال تهذيبًا في العالم، ولا بدَّ من أن يعكس سلوكنا ما ينتظر منَّا. علينا أن نستجيب لهذا التحدِّي بتهذيب وامتنان، قوينا على ذلك أم لم نقو عليه. وسوف يلزمنا أن نفعل ذلك ونحن نضمن لأمِّنا أنَّ الخطَّ الفاصل بين العام والخاصّ - حيثما نقرِّر موضعه في ضوء الظروف، مفروض بحزم - وقد كان هذا الأمر بالنسبة إليها دائمًا أمرًا بالغ الأهمِّيَّة،

برغم انجذابها حتَّى درجة الإدمان إلى أكثر برامج النميمة فضائحية في التليفزيون، أو ربَّما بسبب هذا. يروق لها أن تذكِّرنا بأنَّنا «لسنا شخصيَّات عامَّة». وأعرف أنَّني لن أنشر هذه المذكِّرات إلا حين لا تملك قراءتها.

لم ير أخي أبانا منذ شهرين فلمَّا رآه وجده أشدَّ تيهًا من المعتاد. لا يتعرَّف عليه، ويشعر بالقلق لأنه لا يعرف في أيِّ مكان هو. يشعر بشيء من الطمأنينة تجاه سكرتيرته وسائقه اللذين يتناوبان على زيارته ويقضي أحدهما أو الطاهية أو مدبِّرة المنزل الليل معه في المستشفى. أمَّا أخي فلا جدوى من إقامته لأنَّ أبي يحتاج إلى وجه أكثر ألفة إذا استيقظ في جنح الليل. يسأل الأطبَّاء أخي عن تقييمه لحال أبي بالمقارنة مع حاله قبل أسابيع قليلة، إذ لا يقدرون على القطع بما إذا كانت حالته الذهنيَّة ناجمة عن الخرف أم هي نتيجة لضعفه الراهن. فهو غير منطقي وعاجز عن تقديم إجابات مترابطة لأسئلة بسيطة. يؤكِّد لهم أخي أنَّه وإن بدا أسوأ حالًا بشكل ما، لكنَّ هذا هو حاله منذ شهور كثيرة.

هذا المستشفى واحد من المستشفيات التعليمية الكبرى في البلد، ولذلك يسارع طبيب بالمجيء في الصباح الأول على رأس قطيع فيه أكثر من عشرة من المتدرِّبين. يتجمَّعون حول طرف السرير منصتين إلى الطبيب وهو يستعرض حالة المريض والعلاج، ويرى أخي بوضوح أنَّ الأطبَّاء الشبَّان لا يعرفون مطلقًا غرفة من هذه التي دخلوها. ويظهر على وجوههم، وجهًا تلو الآخر، إدراكهم المتنامي، وهم يراقبونه في فضول لا يحكمون إخفاءه. وحينما يسألهم الطبيب لو أنَّ لديهم أيَّ أسئلة، يهزُّون جميعًا رؤوسهم بالنفي ويمضون في ذيله مضيَّ صغار البطِّ.

لمرَّتين على الأقلِّ كلَّ يوم، عند مغادرة أخي للمستشفى أو وصوله إليه، ينادي عليه حشد الصحفيين. وأخي مهذَّب على الدوام، شأن سيِّد من مطلع القرن التاسع عشر، فلا يملك فعليًّا أن يتجاهل إنسانًا يوجِّه إليه حديثًا

مباشرًا. فإن سئل «كيف حال أبيك اليوم يا غونزالو؟» يجد نفسه مرغمًا على الاقتراب من المجموعة وإذا به واقع في شرك مؤتمر صحفيٍّ مرتجل. أرى مقاطع عبر التليفزيون، وأرى أنَّه بمقدرة كبيرة، وإن يكن بتوتُّر أيضًا، يتدبَّر أمره، بدافع من الانضباط الخالص. أشجِّعه على أن ينهي هذا الأمر. أوضِّح له أنَّه حينما يرى صورة فوتوغرافية لنجمة سينما تغادر مقهى في تجهُّم، مطأطئة الرأس، معرضة عن العالم من حولها، فليس ذلك من وقاحة أو غطرسة. كلُّ ما في الأمر أنَّها تسعى إلى الوصول إلى سيَّارتها بأسرع ما تستطيع وبشيء من الكرامة. ينصت إليَّ مذعورًا كمن يجري إقناعه بالاشتراك في ارتكاب جريمة. وحين يتبنَّى توصيتي في النهاية، لا يكون ذلك خلوًا من إحساس بالذنب، لكنَّه بعد شيء من التمرُّس يعترف أنَّه قادر على الوصول، بمرور الوقت، وبعد الإحماء، إلى بعض العادات الهمجيَّة المعمول بها في دنيا المشاهير.

يستجيب والدنا لعلاج الالتهاب الرئويِّ، لكن الفحوص تكشف تراكم سائل في منطقة الغشاء الرئويِّ فضلًا عن أجزاء مريبة المنظر في رئته وكبده. وهذه أمور لا تتعارض مع الأورام الخبيثة، لكنَّ الأطباء يحجمون عن التكهُّن دون فحص للأنسجة. والمناطق المشكوك فيها يصعب الوصول إليها، لذلك ينبغي أخذ عيِّنة النسيج تحت التخدير الكلِّي. وفي ظلِّ وضعه الصحيِّ الراهن، ثمَّة احتمال بأن يعجز لاحقًا عن التنفُّس بمفرده بما يحتِّم وضعه على جهاز تنفُّس صناعيّ. تمامًا كما في المسلسلات الطبيَّة التليفزيونيَّة، فالحالة بسيطة لكنَّها عارمة. في لوس أنجلوس، أعرض الأمر على أمِّي، وحسب ما هو متوقَّع، تقول لا لجهاز التنفُّس الصناعيِّ. وعليه لا للجراحة، ولا لفحص الأنسجة، ودونما تشخيص للسرطان، ما من علاج.

نتناقش أنا وأخي وننتهي إلى أنَّه يجب أن يلجأ إلى أحد الأطبَّاء، الطبيب المقيم أو جرَّاح الرئة مثلا، ويرغمه على التخمين. يسأل أخي: «لو أنَّ في الرئة

أو الكبد أورامًا خبيثة» – لو، دائمًا لو – «فما تخمينك؟». تكون أمامه أشهر قليلة، وربما أطول، لكن مع العلاج الكيميائيِّ. أصف الوضع والأعراض لطبيب أبي وصديقه المختصِّ في الأورام في لوس أنجلوس فيقول وهو في غاية الهدوء «يحتمل أن يكون سرطانًا في الرئة». ويضيف «لو أنَّ هذا ما يشكُّون فيه، فخذوه إلى البيت وأريحوه، ومهما يكن من أمره، إيَّاكم أن ترجعوه إلى المستشفى. الإقامة في المستشفى سوف تجهز عليكم جميعًا». أستشير حماي في المكسيك، وهو أيضًا طبيب، فيأتي ردُّه مماثلاً بصفة عامَّة: الابتعاد عن المستشفى، وتيسير الأمر على أبي وعلينا جميعًا.

4

عليَّ أن أكلِّم أمِّي وأؤكِّد لها أسوأ مخاوفها جازمًا بأنَّ الرجل الذي كان زوجًا لها لأكثر من نصف قرن مريضٌ مرض الموت. أنتظر إلى أن نصير وحدنا في صباح يوم سبت. أبدًا شرح الوضع، فأوجز متأنِّيًا ما مرَّ بنا وما نحن فيه حاليا، وتنصت ناظرة إليَّ بقدر يبدو معتدلا من عدم الاهتمام، أو النعاس، أو كمن تسمع قصَّة سمعتها مرَّات كثيرة من قبل. لكنَّني لا أكاد أصل إلى الخلاصة، حتى أحاول أن أنحو إلى الإيجاز والدقَّة: احتمال كبير أن يكون سرطانًا في الرئة أو في الكبد، أو في كليهما، ولا يبقى له في حياته غير أشهر قليلة. وقبل أن يفضح وجهها أيَّ تعبير، يرتفع رنين هاتفها فتردّ، ويصيبني هذا بدهشة عارمة. أراقبها، في ذهول، وهي تكلِّم شخصًا في إسبانيا، وأعجب من مثال حيٍّ ونموذجيٍّ للتهرُّب أراه أمام عينيّ. تهرُّب جميل، على طريقته، لا تملك إلا أن تحبَّه؛ فهي برغم كلِّ ما لديها من قوَّة وخبرات، تبقى مثل الجميع. تختصر المكالمة وتنهيها وتلتفت إليَّ في هدوء وتقول «وعليه؟» كما لو أنَّنا نتناقش هل الأفضل أن نواصل في الطريق العام أم نعرج إلى شارع جانبي. «سيصطحبه غونزالو إلى البيت بعد الغد. ويجب أن نرجع إلى المكسيك». تطرق، مستوعبة الأمر كلَّه ثم تسأل: «وهذا هو الأمر. بالنسبة إلى أبيك؟»

«نعم، يبدو أنَّ الأمر كذلك».

تقول «يا أمَّاه» وتشعل سيجارتها الإلكترونيَّة.

5

لا بدَّ أنَّ الكتابة عن موت الأحباب قديمة قدم الكتابة ذاتها، ومع ذلك فإنَّ الرغبة في القيام بذلك تصيبني على الفور بحيرة بالغة. ينتابني الفزع إذ أفكِّر في تدوين ملاحظات، ويجلِّلني العار إذ أدوِّنها، ويعتريني الإحباط من نفسي حين أرجع النظر فيها بعد تدوينها. والذي يشحن الأمر بعواطف مضطربة أنَّ أبي شخص شهير. فلعلَّ وراء الحاجة إلى الكتابة نزوعًا كامنًا إلى جني المرء شهرةً لنفسه في هذا العصر المنحط الذي نعيش فيه. لعلَّه خير لي أن أقاوم نداء الكتابة وأبقى متواضعًا. والتواضع في النهاية هو اللون المحبب لديَّ من الزهو. لكن الموضوع – شأن الحال في أكثر الكتابة – هو الذي يختار المرء، وقد لا يكون للمقاومة من جدوى.

قبل أشهر قليلة سألتني صديقة عن حال أبي مع فقدانه ذاكرته. فقلت لها إنَّه يعيش الحاضر، صارمًا في ذلك، لا يثقله ماضٍ، ولا تقيِّده توقُّعات مستقبل. أمَّا استشراف المستقبل بناء على تجارب الماضي – وهو ما يُعتقد بكونه أمرًا ذا دلالة تطوُّريَّة ويُعتقد أيضًا بكونه أصلًا من أصول الحكي – فلم يعد له دورٌ في حياته.

خلصت من ذلك إلى أنَّه «إذن لا يعرف أنَّه فانٍ» وأضافت «كم هو محظوظ».

مؤكَّد أنَّ الصورة التي رسمْتُها لها صورة مبسَّطة. مصطبغة بالصبغة الدرامية. فلم يزل الماضي يلعب دورا في حياته الواعية. ولم يزل يعتمد على

صدى بعيد من مهاراته التواصلية المعتبرة إذ يطرح على أيِّ شخص يقابله سلسلة أسئلة آمنة: «كيف الأحوال؟»، و«أين تعيش في هذه الأيام؟»، و«كيف حال جماعتك؟». ويحدث بين الحين والآخر أن يغامر بحوار أكثر طموحًا فيرتبك في ثناياه، ويفلت منه خيط الأفكار أو تخذله الكلمات. وإذا بالحيرة ترتسم على وجهه، ويعبر به الحرج أيضًا لوهلة، فكأنَّه نفثة دخان في الريح، فيكشف عن ماضيه أيَّام أن كان الحوار بالنسبة إليه طبيعيًّا كأنَّه التنفُّس. الحوار الخالص، الطريف، المثير، المستنفِر. فكم كانت لـ **الكونسرفادور**، أي المحاور، العظيم مكانة وسط جماعة أصدقائه الأوائل تكاد ترقى إلى مكانة الكاتب الجيِّد.

وهو أيضًا، لم ينفض يده من المستقبل بالكامل. فكثيرًا ما يسأل عند المغرب «إلى أين سنذهب الليلة؟ هيَّا بنا نذهب إلى مكان ظريف. هيَّا نذهب للرقص. لمَ؟ ولمَ لا؟» وحينما تغيِّر الموضوع بضع مرَّات، يجاريك.

يستطيع التعرُّف على أمِّي ويخاطبها بـ ميشي، وبـ مرسيدس، وبالأمِّ، وبالأمِّ المقدَّسة. وقبل زمن غير بعيد، مضت شهور قليلة شديدة الصعوبة كان يتذكَّر فيها زوجته التي عاشت معه طوال عمره لكنه عندما ينظر إليها وهي واقفة أمامه يظنها امرأة أخرى تحتال عليه زاعمة أنَّها تلك الزوجة.

«فيم إصدارها الأوامر هنا وإدارتها للبيت وهي بالنسبة إليَّ لا شيء؟»

فانتاب أمِّي الغضب من ذلك.

وسألت في ذهول «ماذا دهاه؟»

«إنَّه ليس نفسه يا أمِّي. وهكذا هو الخرف». نظرت إليَّ كما لو أنَّني أحاول أن أخدعها. والمدهش أنَّ تلك الفترة مضت، واستردَّت أمِّي مكانها اللائق في عقله بوصفها رفيقته الأساسية. والسند الأخير. بوسعه أن يتعرَّف على

سكرتيرته، وسائقه، وطاهيته، وقد عملوا جميعا في بيته لسنين، فبات يجدهم مألوفين، ودودين، أناسا يشعر في حضورهم بالأمان، لكنَّه بات يجهل أسماءهم. وعند زيارتي أنا وأخي، يطيل النظر إلينا ويتمعَّن فينا، بفضول جامح. يدقُّ وجهانا في ذاكرته ناقوسا بعيدا، لكنَّه لا يستطيع أن يتبيَّن من نكون.

يسأل مدبِّرة المنزل «من اللذان في الغرفة المجاورة؟»

«ولداك».

«فعلا؟ هذان الرجلان؟ **اللعنة**. شيء لا يصدِّقه عقل».

قبل بضع سنوات مرَّت فترة أقبح. كان أبي واعيًا تمام الوعي بأنَّ عقله ينفلت. ظلَّ يطلب العون طيلة الوقت، مكرِّرًا المرَّة تلو المرَّة أنَّه يفقد ذاكرته. وإنَّه لثمن فادح يتكبَّده من يرى شخصًا يعتريه مثل ذلك القلق، إذ يضطرُّ إلى احتمال تكراراته اللانهائية مرَّة بعد مرَّة. كان يقول «إنَّني أعمل بذاكرتي. الذاكرة أداتي وخامتي. لا يمكن العمل في غيابها. ساعدوني» ثم يكرِّر ذلك بشكل أو بآخر لمرَّات كثيرة في الساعة، على مدار نصف ساعات الظهيرة. فترة مضنية. ومرَّت في نهاية المطاف. استعاد سكينته وصار يقول في بعض الأحيان «إنَّني أفقد ذاكرتي، لكن من حسن الحظِّ أنَّني أنسى ذلك» أو «يعاملني الجميع معاملة طفل، ومن حسن الطالع أنَّ ذلك يروق لي».

تحكي لي سكرتيرته أنَّها وجدته ذات أصيل واقفًا وحده في منتصف الحديقة، شاخصًا ببصره إلى البعيد، غارقًا في أفكاره.

«ماذا تفعل هنا يا دون غابرييل؟»

«أبكي».

«تبكي؟ لكنَّك لا تبكي».

«بل أبكي. لكن بلا دموع. ألا تدركين أنَّ رأسي الآن هباء؟»

في موقف آخر قال لها «هذا ليس بيتي. أريد أن أرجع إلى البيت. عند أبي. لي سرير بجوار سرير أبي».

نشكُّ في أنَّه لم يكن يقصد أباه، وإنما جدّه الكولونيل الذي عاش معه حتى بلغ الثامنة (وألهمه شخصيَّة الكولونيل أورليانو بوينديا). كان ذلك الكولونيل صاحب أكبر أثر في حياته. كان أبي ينام على حشيَّة تفرش على الأرض بجوار سريره. ولم ير أحدهما الآخر بعد عام 1935.

تقول السكرتيرة «وهكذا هو والدك، حتى الأمور القبيحة قادر حين يتكلم عنها، أن يجعلها جميلة».

6

تأتي سيِّدة تعمل في شركة لتأجير المعدّات الطبيَّة ذات صباح بسرير طبيٍّ وتنصبه في غرفة الضيوف تحت إشراف سكرتيرة أبي. ولاحقا، في نشرة أخبار المساء، ترى السيِّدة سيَّارة إسعاف أمام البيت راجعة بأبي من المستشفى فتدرك لمن السرير. في اليوم التالي تبعث إلينا رسالة بالنيابة عن رئيسها تقول فيها إنَّه شرف لهم أن يوفِّروا السرير الطبيَّ ليستعمله أبي وإنَّه بالطبع سوف يكون بالمجَّان. ويكون ردُّ فعل أمِّي الأوليُّ هو الرفض، فهي تؤمن دائمًا بأنَّ عليها أن تدفع ما عليها دفعه. لكنَّنا نقنعها بأن تتجاوز عن الأمر. وتقلُّ المهام واحدة.

بعد أن يغادر أبي المستشفى، ينشر تقرير خروجه منها في صحيفة صفراء. يتبيَّن أنَّ الورقة وقعت من أخي وعثر عليها أحد زوَّار المستشفى فأهداها بدوره إلى ابنته التي تتعافى من جراحة والقارئة النهمة لكتب أبي. أمَّا وصولها إلى الصحافة فيبقى لغزا.

7

منذ أن انتشر خبر علاج أبي في المستشفى، بدأت الصحافة والمحبُّون في التجمُّع أمام البيت. فيشهد يوم رجوعه من المستشفى وجود قرابة المئة، وقد نشرت سلطات المدينة قوات شرطة لفرض نطاق حول باب البيت. ترجع السيارة التي تحمله داخلة المرأب، لكنها أطول من أن تسمح بإغلاق الباب عليها. فيرفع أخي ومدبِّرة البيت وسكرتيرة أبي ملاءات لحمايته من التقاط الصور وهو محمول من مؤخرة سيارة الإسعاف إلى داخل البيت. تثير حنقي الصورة المنشورة لأخي وهو رافع الملاءات لحماية البقية الباقية من الخصوصية. ولكنني أذكِّر نفسي بأنَّ أغلب الواقفين بالباب هم قرَّاؤه وبعض المنابر الصحفية الجادَّة، وليسوا من الصحافة الصفراء.

بلا حياء يبادر الصحفيون كلَّ من يأتي أو يرحل من الأصدقاء والأطبَّاء طارحين عليهم الأسئلة ساعين إلى معرفة المستجدَّات. والأقارب في العادة ما يمضون بسياراتهم إلى مرأب آخر ويغلقون الأبواب وراءنا، فننجو نحن من ملاحقة الصحفيين. تحكي لي سكرتيرة أبي واقعة بالغة الندرة حدثت في ذلك الأسبوع، إذ تركت أمِّي البيت وعند رجوعها استعصى باب المرأب ولم يفتح. ولم تجد بديلا إلا أن تسير قرابة عشر خطوات حتى باب البيت. وفيما تخرج من السيارة، حلَّ على الشارع سكون الموت إبداءً عفويًّا لاحترام لافت. سارت المسافة، مطأطئة رأسها قليلا كأنّها مستغرقة في التفكير، غير مضطربة أكثر ممَّا لو أنّها تسير بين غرفة نومها والحمَّام، غافلة أو لاهية عن الجوّ الذي تغيَّر من أجلها. وكان أبي كثيرًا ما يقول إنّها أكثر شخص صادفه

في حياته إثارة للدهشة.

يستقرُّ رأينا على أنَّه لا يمكن وضع أبي في غرفة النوم الرئيسية، فتكون العناية به سببًا في إقلاق نوم أمِّي. فيوضع في أقصى القاعة المقابلة لها، في غرفة ضيوف تستعمل أيضًا كقاعة عرض، وكانت قبل عقود شرفة ضخمة يجتمع فيها طلبة المدرسة الثانويَّة للتدخين، حتى تحوَّلت في النهاية إلى غرفة مغلقة.

بعد وضعه في السرير الطبيِّ، ينطق أبي أولى كلماته، بصوت هامس متحشرج يصعب تبيُّنه، فلا يعدو ذلك قوله «أريد أن أرجع إلى البيت». توضِّح له أمي أنَّه في البيت. ينظر حوله بما يماثل خيبة الرجاء، ولا يبدو عليه أنَّه تعرَّف على شيء. يرفع يمناه المرتعشة إلى وجهه، وهذه إيماءة شديدة الشبه به. تحطّ يده على جبينه، ثمَّ تنزلق ببطء شديد على عينيه، فتغمضهما إغماضا. يزمُّ شفتيه بشدَّة عابسا. وهذه إيماءة يبدي بها إعياءه أو تركيزه حينما يستولي عليه شيء سمعه للتوِّ، ويكون ذلك الشيء في العادة مرتبطا بمشقَّة يعاني منها شخص. وكم نرى هذه الإيماءة على مدار الأيَّام القليلة التالية.

سيتولي العناية بأبي مساعداه المعتادان واثنتان من الممرِّضات تتناوبان فيما بينهما. ممرِّضة النهار مثيرة للإعجاب. اقترحوها علينا في المستشفى عند إخراج أبي من هناك. هي في أواخر الثلاثينيات، متزوِّجة، ولا أبناء لها، ودود، معتدلة المزاج، واثقة، تشعُّ منها رجاحة العقل. تقاريرها مفصَّلة ومكتوبة بخطِّ يد أنيق، والأدوية والعلاجات موضوعة بدقَّة تامَّة، وستائر الغرفة تُفتح وتُسدل على مدار النهار حفاظًا على قدر مطمئن من الإضاءة في الغرفة. لها حضور طاغ سببه الجمال الكامن في مشاهدة شخص رائع في ما يفعله، فضلا عن الارتياح الناجم عن دعم عاملة صحيَّة متعاطفة. وهي أيضًا حنون على مريضها، تخاطبه في الغالب بـ **يا حبيبي ويا صغيري الحلو**. ولم أرها مضطربة إلا مرَّة واحدة، إذ وجدتْ، عند مراجعتها أحدث تعليمات

أحد الأطباء، إمَّا شيئًا اعتبرته استمارة ناقصة أو ما بدا لها تناقضا في الأوراق المتعلقة بأوامر «عدم الإنعاش» الخاصة بأبي. يُنحَّى كلُّ شيء جانبا على مدى نصف ساعة كامل وهي تراجع المستندات بينما تبعث رسائل عبر الهاتف. وأخيرا تتكلَّم مع طبيب القلب فيرضيها ما يقال لها. وبعد مجموعة توقيعات أخيرة من أمِّي وطمأنة منِّي بأنَّ كلَّ شيء على ما يرومه الجميع، ترجع إلى روتينها وقد بدا عليها الارتياح.

يستيقظ أبي بين الحين والآخر، فيكون ذلك مدعاة للبهجة من حوله. يسعد الأهل، ومسؤولو الرعاية، والطبيب غير نادر التردُّد على البيت، بالتواصل معه. نطرح عليه أسئلة، وننصت مستغرقين إلى إجاباته، ونشجِّعه على الحوار. نبتهج بأنَّه منتبه، ويجد الأطباء والممرِّضات إثارة في الثرثرة مع المعلم الأسطوري. يتحدَّث في رويَّة تنسيك، في غمرة السعادة باللحظة الطيِّبة، أنَّه غارق منذ سنين في الخرف وأنَّ الرجل الذي نكلِّمه لا يكاد يكون حاضرا بيننا على الإطلاق، ولا يكاد يعقل من الأمر كلِّه شيئًا، ولا يكاد يمثِّل نفسه.

لمرَّات قليلة في اليوم يجري تبديل وضعه في السرير، وتدليك عضلاته، ومدِّها. فحينما يكون يقظا، أرى لذَّة ناعسة تطفو عليه. ذات أصيل يمرُّ علينا طبيب شاب، هو كبير الأطبَّاء المقيمين في المستشفى، وله أب كولمبي. يسأل أبي عمَّا يشعر به، وتكون الإجابة «منهار». تخبره المريضة، ضمن موجزها الطويل، بأنَّه يجري فرك بشرة أبي والاعتناء بعضوه التناسلي، ووضع الكريم على المنطقة. ينصت أبي ويصطنع وجه المذعور. لكنَّه يبتسم، ويرتسم على وجهه تعبير لا يكذب: إنَّه يمزح. ثم يضيف، لمزيد من الإيضاح: «تقصدين خصيتيّ». تنفجر الغرفة ضحكًا. نجت طرافته، في ما يبدو، من الخرف. وهي جزء لا يتجزَّأ من جوهره الأصيل. لقد كان أبي بصفة عامَّة رجلا حيِّيًا

في ما يتعلق بجسمه. ربَّما إلى درجة الجبن. لكنَّني لا أعتقد أنَّه كان ليجد أيَّ امتهان في طريقة الاعتناء به. بل إنَّه كان ليمتنَّ لما لقي من محبَّة.

عندما يحين موعد تغيير نوبة التمريض، تجتمع في الغرفة لدقائق قليلة الممرِّضتان ومساعداهما، وأيضا إحدى مدبِّرتي المنزل أو كلتاهما. تقول سكرتيرة أبي وهي تنظر إلى قدميه عند تغيير ملاءات السرير إنَّها سمعت أنَّ له قدمين جميلتين لكن لم يسبق أن رأتهما قطُّ. تنظر النسوة جميعا ويوافقنها. لا أعرف أين بحقِّ الله يمكن أن تكون قد سمعت ذلك. والأحسن ألا أسأل.

في بعض الأحيان يوقظه صوت كورس الأصوات النسائية. يفتح عينيه، فيشعُّ منهما وميض فور أن تلتفت النساء إليه ويخاطبنه بمحبَّة وثناء. في إحدى هذه الحالات، أكون في الغرفة المجاورة حين أسمع جماعة النساء يضحكن ضحكًا صاخبًا. أذهب لأسأل عمَّا يجري. يقال لي إنَّ أبي فتح عينيه، ونظر إلى النساء نظرة متمهِّلة، ثم قال في هدوء «لا أستطيع أن أنكحكنَّ جميعًا».

بعد لحظة، حينما تدخل أمِّي، يسلبه صوتها وحضورها لبَّه.

8

على مدار طفولتي، كان أبواي ينامان القيلولة بعد ظهر كلِّ يوم، دونما استثناء تقريبًا. وبين الحين والآخر كان أبي يطلب منَّا أن نوقظه إذا ظلَّ نائما إلى ما بعد وقت معيَّن. تعلَّمت وأخي في عمر مبكِّر للغاية أنَّ هذا تكليف خطير. فلو أنَّك وقفت أقرب ممَّا ينبغي وأنت تطلب منه أن يستيقظ أو إذا حدث، لا قدَّر الله، أن لكزته، لجفل وارتاع إلى حدِّ الاستيقاظ صارخًا، ملوِّحا بذراعيه من حوله محاولًا أن يحمي نفسه من شيء ما أو شخص ما، خائفًا، يلهث طلبًا للهواء. وتقتضي استعادته لإدراكه موقعه من هذا العالم لحظات عديدة. فوضعنا نظامًا: نقف لدى باب غرفة النوم وننادي باسمه في هدوء، وسكون، وبعض الرتابة. ومع ذلك كان يصحو مضطربًا في بعض الأحيان، لكن في أكثرها لم يكن ذلك يحدث. وإن رأينا منه ردَّ فعله المرتاع، كنَّا نستطيع أن ننسحب بسرعة إلى الطرقة.

بعد صحوه الهادئ، كان يدعك وجهه بكلتا يديه كأنَّما يغسله في بطء، ثم ينادي باسم التدليل الذي يحبُّه لنا (كلب وحمار). ويشير إلينا أن تعالوا، ويأمرنا أن نقبِّله، ثم يمضي إلى أن يسألنا: «ما الجديد؟ كيف هي الحياة؟» ولم يكن من غير المعتاد أيضًا أن نسمعه بالليل يئنُّ ويلهث وأمِّي تهزُّ كتفه بقوة لتوقظه. ومرَّة سألته بعد قيلولة مضطربة عمَّا كان يحلم به. فأغمض ليستدعي الحلم.

«رأيتني في يوم جميل، راكبا زورق بلا مجاذيف، ينساب ببطء شديد،

ودعة، على سطح نهر رائق».

سألته، وأين الكابوس في ذلك؟

«لا أعرف».

ومع ذلك، أعرف أنَّه لا محالة يعرف. برغم إصراره على إنكاره أن يكون أيُّ شيء في كتابته رمزيًّا عن قصد، وازدرائه لأيِّ نظريات أكاديمية أو آراء متعالية تلقي ضوءا على المجاز في قصصه، فهو يعرف أنَّه عبد للعقل الباطن، شأن غيره من الناس. يعرف أنَّ الأشياء تمثِّل أشياء أخرى. وهو مثل الكثير من الكتَّاب مهووس بالفقد وأفدح تجلياته، أي الموت. الموت بوصفه نظامًا وانتفاء للنظام، بوصفه منطقًا واختلالًا للمنطق، بوصفه حتمًا، وبوصفه مرفوضًا.

9

في بواكير السبعينيات من عمره، وخلال جولات عديدة من العلاج الكيميائي وبعدها، كتب أبي مذكَّراته. كان التصوُّر في البداية أن يكون المشروع سلسلة كتب، أوَّلها يبدأ بأولى ذكرياته وينتهي بانتقاله إلى باريس وهو في السابعة والعشرين من العمر ليعمل مراسلاً صحفيًّا. لكنَّه بعد الكتاب الأوَّل، لم يكتب غيره، وذلك بالأساس لتخوُّفه من تحوُّل الكتابة عن فترات النجاح، كحال كثير من سير المشاهير، إلى محض استعراض لأسماء الأعلام والنجوم. فليلة مع فلان الفلاني، وزيارة لمرسم رسَّام شهير، وتآمر مع هذا أو ذاك من رؤساء الدول، وإفطار مع ثوريٍّ ذي كاريزما.

قال «لن يكون مهمًّا على أيِّ قدر إلا الكتاب الأوَّل، بالنسبة إليَّ على أيِّ حال، لأنَّه يشمل السنين التي صنعت منِّي كاتبًا».

في سياق آخر قال ذات مرَّة: «لم يحدث لي شيء مثير للاهتمام بعد سنِّ الثامنة».

وقد كان في تلك السنِّ حينما انتقل من بيت جدَّيه، في بلدة أركاتاكا، ومن العالم الذي ألهمه أولى كتاباته. اعترف أنَّ كتبه القليلة الأولى كانت تجارب من أجل الاستعداد لـ **مئة عام من العزلة**.

في معرض بحثه من أجل كتابة سيرته، اتصل بأصدقاء قدامى من عهد ما قبل المدرسة، لم يكن قد رأى كثيرًا منهم أو سمع عنهم منذ تلك الأيَّام. في بعض الحالات، لم يكن يتسنَّى له غير الحديث إلى ابن أو ابنة أو زوجة، لأنَّ

الصديق نفسه مات. كان قد توقَّع أن يجد منهم من مات بمرور السنين، لكنَّ ما أذهله هو أولئك الذين ماتوا في السنوات الأخيرة: رجال عاشوا أعمارا كاملة، سعيدة نسبيًّا، ومنتجة، وماتوا في السبعينيات من أعمارهم، أي في متوسِّط العمر المتوقَّع في العالم. ميتات أولئك الرجال المماثلين له في العمر لم تكن بالمأساوية، إنَّما هي ببساطة نهاية دورات الحياة الطبيعيَّة. ودرج بعد هذه الفترة على قوله إنَّ «كثيرًا من الناس يموتون وما كانوا يموتون من قبل» ويسعد بما يثيره قوله من ضحك.

10

برغم كونه اجتماعيًّا بطبيعته، وبرغم ارتياحه إلى الحياة العامَّة، كان أبي أقرب إلى الحريص على حياته الشخصيِّة، حتى ليصل أحيانا إلى حدِّ التكتُّم. ولا أقول بهذا إنَّه لم يكن يستمتع بالشهرة، أو أنَّه سلم من النرجسية بعد عقود من وله الناس به، لكن برغم ذلك بقي لديه دائمًا ارتياب من النجوميَّة والنجاح الأدبي. وكم كان يذكِّرنا (ونفسَه) على مدار السنين بأنَّه لم يحدث لأيٍّ من تولستوي أو بروست أو بورخس أن فازوا بجائزة نوبل، ولا فاز بها ثلاثة من كتّابه المفضّلين: فرجينيا وولف وخوان رولفو وغراهام غرين. وكثيرا ما كان يبدو له أنَّ نجاحه لم يكن بالشيء الذي حقَّقه بنفسه وإنَّما هو شيء وقع له. وحتى أواخر حياته، مع شحوب ذاكرته، لم يعاود قطُّ قراءة كتبه خشية أن يجد بها نقصًا معيبًا أو أن تصيبه إبداعيًّا بالشلل.

11

أسافر راجعًا إلى لوس أنجلوس لبضعة أيَّام كي أستمرَّ في العمل على مونتاج الفيلم. يحكي الفيلم قصة آباء وأبناء، ويتناول مشهدُ ذروته الطويل، الذي نعمل عليه، وفاة الأب من خلال سلسلة ظروف قد يلام عليها الابن بعض الشيء. ثمَّة مواجهة يعقبها ما يشبه الحادث، فمشهد احتضار، فحمل للجثة، وغُسْل لها، وطقس ختاميٌّ من شأنه طمس الجسد، أي محو الأب إلى الأبد عن وجه الأرض. اضطراري إلى العمل على هذا بينما أبي في أسابيعه الأخيرة مصادفة مقبضة لم تغب عن أحد. أتقبَّلها وكأنَّها شيء لا بدَّ من احتماله وتقبُّله. أتقبَّلها وكأنَّها خفَّة ظلٍّ من الربِّ. لكن مع مرور الوقت، لا يعود بوسعي التظاهر بأنَّ العمل على هذه المشاهد غير مزعج. بل هو موهن. أكره نفسي لكتابتي قصَّة كتلك. أفْرط في تناول الطعام، وبخاصَّة الشوكولاتة، لأميت شيئًا من الألم. لعلَّ القصَّة الوحيدة الجديرة بالكتابة هي القصَّة التي تجعلك تضحك. سأفعل ذلك في المرَّة القادمة، أنا متأكِّد. وقد لا أفعل.

لسنوات قليلة بعد بدايتي في إخراج الأفلام، كنت كثيرًا ما أُتلقَّى سؤالًا عن الفنَّانين الذين تركوا أثرًا عليَّ. فكنت أمتثل وأسرد قائمة أسماء، بعضها أصيل، وبعضها بديهي، إلى أن جاء يوم أدركت فيه أنَّني أكذب. وأنَّه ما من مخرج أو كاتب أو شاعر – ولا لوحة أو أغنية – تركت أثرًا عليَّ يقارن بأثر والديَّ، وأخي، وزوجتي، وابنتيَّ. وأنَّ أغلب الأمور الجديرة بالتعلُّم هي التي لم نزل نتعلَّمها في البيت.

12

أرجع إلى المكسيك، فيكون أسبوع أو أكثر قليلًا قد مرَّ على رجوع أبي إلى البيت، ولكنَّ التعب الشديد يكون قد بدا بالفعل على أمِّي. تسأل لو أنَّني أعتقد بالفعل أنَّها مسألة أشهر، تسأل كمن توضِّح لي إحساسها بأنَّها لن تقوى على احتمال هذا المدى الزمنيِّ. ومع ذلك يبقى علاج أبي في البيت هادئًا. فهو في غرفة بعيدة عن غرف النوم الرئيسيَّة، ولديه رعاية بالنهار والليل، ويبدو بصفة عامَّة مستقرًا. وفي بقيَّة البيت لا يبدو أنَّ شيئًا غير معتاد يجري. لكن الساعة، في نظر أمي، تدقُّ في تلك الغرفة ببطء لا يعرف الرحمة، وبدويٍّ كدويِّ النواقيس في الكنائس.

أقول لها إنَّني أعتقد أنَّ الأمر لن يطول إلى تلك الدرجة، دون أن يقوم تقديري على شيء إلا رغبتي في أن أطمئنها. في اليوم التالي يرجع طبيب القلب الخاص به، وبعد فحص طويل لأبي يغيِّر تقديره. لم تعد الآن شهورًا، ولكنّها أسابيع على الأرجح. ربَّما ثلاثة على أقصى تقدير. تنصت أمِّي في صبر، وهي تدخِّن، مقسومة ربَّما قسمة العدل بين الارتياح والرعب.

في وقت تال يمرُّ طبيب في قرابة الأربعين، متخصِّص في أمراض الشيخوخة، لينصحنا بطبيعة الرعاية في مرحلة النهاية. هو الأصغر بين جميع الأطبَّاء الذين نتعامل معهم في الفترة الأخيرة، وذلك أمر غير متوقَّع حين نفترض أنَّ الشباب لا ينبغي أن يكون قادرًا على فهم بلايا الشيخوخة. تستجوبه أمِّي مثلما تستجوب الجميع. يبيِّن أنَّه يعاني من ورم ليمفاوي في

حالة سكون، فتتغيَّر نظرتي إليه تمامًا. يبدو لي بغتة ضعيفًا، خجولًا. واحتمال أنه قد يكون في خطر أوشك من الخطر المحدق بمرضاه الذين يكبرونه بعقود عديدة لا بدَّ أن يكون احتمالًا مؤرِّقًا. يقول إنَّنا إذا ما رغبنا، حينما يحين الوقت، في التعجيل بالأمور، فيمكن قطع تقطير الماء عن أبي. ويخبرنا أنَّ حفنة من البلاد تعدُّ الماء حقًّا إنسانيًّا لا يمكن إنكاره على مريض مهما تكن الظروف. لكنَّ القانون المكسيكيَّ يختلف، وليس نادرًا أن يمنع أقارب مريض عنه الماء عند اقتراب النهاية اقترابًا شديدًا. يقول إنَّ المريض في ذلك الوقت يكون مخدَّرًا في العادة فلا يعاني. ننصت في صمت، كأنَّنا نتفرَّج على مناجاة غريبة في مسرحيَّة تجريبيَّة. الأفكار مثيرة وعبثيَّة. عمليَّة، رحيمة، قاتلة.

13

أجلس وأمِّي معا نشاهد الأخبار فتقول لي بغتةً ودونما مقدِّمات: «علينا أن نستعدَّ لأنَّ الوضع سيكون أشبه بحديقة حيوانات». تقصد ردَّ فعل الإعلام والقرَّاء والأصدقاء في كلِّ العالم حينما يموت أبي. بدأ كثيرون في الاتصال والكتابة فور أن انتشر خبر علاجه في المستشفى. ثم أكَّدت منابر قليلة أنَّه رجع إلى البيت ليقضي فيه أيَّامه الأخيرة. هو في السابعة والثمانين من العمر، فليس افتراض مروره بأزمة صحية إفراطا في التكهُّن.

نقرِّر، نحن وأخي، أن نجري فور موت أبي بضعة اتصالات بصحفيين نعرفهم معرفة شخصيَّة. هي قائمة قصيرة: صحيفتان في كولومبيا، واحدة هي الأكثر تأثيرًا في البلد، والأخرى هي التي بدأ أبي فيها حياته المهنيَّة في أوائل العشرينيَّات من عمره. وفي المكسيك، نستقرُّ على صحفيَّة من أبرز الصحفيين في البلد، تقدِّم برامج إخبارية في كلٍّ من التليفزيون والإذاعة. وسوف نتصل أيضًا بقليل من الأصدقاء المقرَّبين الذين يمكن أن ينشروا الخبر حسبما يرونه مناسبًا. من هؤلاء بالطبع وكيلته وصديقته، وصديقان في برشلونة، وكذلك أخ من أخوته يمثِّل نقطة الاتصال بالعائلة في كولومبيا. وقد تمَّت تهيئتهم جميعًا إلى أنَّنا نقترب من النهاية.

القسم الثاني

وعندئذ عقد ذراعيه على صدره وشرع يصغي إلى أصوات العبيد الصدَّاحة وهم يتغنَّون في المعاصر بترياق الساعة السادسة، ورأى من الشبَّاك كوكب الزهرة ماسةً تحتضر إلى الأبد في السماء، والثلوج الخالدة، وشجرة اللبلاب الجديدة التي لن يرى زهورها الجرسيَّة الصفراء إذ تتفتَّح في يوم السبت التالي داخل البيت المغلق بسبب الحداد، ألقًا أخيرًا لحياة لن تتكرَّر مرَّة أخرى إلى أبد الآبدين.

الجنرال في متاهته[1]

(1) هذا هو مشهد وفاة سيمون بوليفار، وقد اطلعت عند ترجمته على ترجمتي الأستاذين محمد عبد المنعم جلال (الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1996) وصالح علماني (المدى، 2007).

14

أسافر إلى لوس أنجلوس مجدَّدا لأقضي أيامًا قليلة أخرى في غرفة المونتاج. في ليلتي الثانية بالبيت، آوي مبكِّرا إلى فراشي، لكن ينتابني القلق بعد أن أطفئ النور من أنَّ الهاتف سوف يرنُّ في جنح الليل ويروِّعني ترويعًا. ويفعل هذا وذاك. أسمع صوت أخي من الناحية الأخرى، يبدو هادئًا عن قصد.

«أهلًا. حرارته مرتفعة. يقول الطبيب إنَّ الأفضل أن تحضر».

أضع السمَّاعة ثمَّ أحجز رحلة مبكِّرة عبر هاتفي وأستلقي يقظًا في الظلام. يغلبني حزن هائل على أخي، وأمِّي، وعليَّ أنا. حينما كنت وأخي طفلين صغيرين في المكسيك وإسبانيا، كانت بقيَّة العائلة من ناحيتَيْ أبي وأمِّي في كولومبيا، فكان إحساسنا شديد القوة بأنَّ أربعتنا وحدةٌ واحدة، أنَّنا نادٍ من أربعة. والآن يوشك النادي أن يفقد عضوه الأوَّل. إحساس يكاد يسحقني.

في الطائرة في اليوم التالي، أرتبك لوهلة فلا أعرف يقينًا هل أنا مسافر إلى مكسيكو سيتي أم منها، وكذلك كان دوار الأيام القليلة الماضية. لا أكاد أصل إلى المطار حتَّى أتصل بأخي فيما لم أزل بين الجوازات وانتظار الأمتعة.

يقول «أمامه أقلُّ من أربع وعشرين ساعة».

اللعنة. كيف انتقلنا من «أمامه أشهر فقط» إلى «أسابيع على الأرجح» إلى «أربع وعشرين ساعة؟». بعد عشرات الحوارات مع الممرِّضات والجرَّاحين

وأطبَّاء الأورام واختصاصيِّي الرئة، والأطبَّاء المقيمين، وأطبَّاء الشيخوخة، وكلُّهم بلا استثناء كانوا حازمين في تجنُّب التكهُّنات، ها هي وقاحة هذا التكهُّن الجديد عديم الشفقة. تكبَّد طبيب القلب الخاصُّ بأبي عناء شرحه لنا، في كلِّ مرحلة، الفارق بين الممكن والمحتمل. ونحن الآن في الحتميِّ. السلطة التي يقطعون بها أنَّ حياته سوف تنتهي في غضون يوم تبدو استثنائية، لكن لا يبدو أنَّ وراءها حسابات أساسيَّة. الكليتان تفشلان. البوتاسيوم يتراكم في مجرى الدم. سوف يتوقف القلب. هي النهاية نفسها التي شهدها مئات ملايين الأفراد من قبله. الحياة، على ما هي عليه من قدم، وعلى الرغم من أنَّها عيشت مرَّات كثيرة، تبقى رحيمة في استعصائها على التكهُّنات. والموت، حينما يدور في هذا الفلك القريب، نادرا ما يخطئ.

أمضي إلى سير نقل الأمتعة والدموع تنساب على وجهي.

15

أطلب من الممرِّضة النهارية أن تخبرني إذا رأت في أبي أيَّ تغيُّر أو عرَض قد يشي لها بأنَّ النهاية قريبة. أضيف أنَّه ما من ضغوط عليها لتقديم هذا الإنذار، فقط تخبرني حين ترى أيَّ شيء، وسوف أكون ممتنًّا لذلك. جاءت زوجة أخي وأبناؤهما من بيتهم في باريس، وسوف تسافر زوجتي وبناتي في الصباح التالي.

في ظهيرة ذلك اليوم، بينما أمِّي في قيلولتها، أعمل قليلًا في مكتب أبي. أجيل النظر في البيت، ويذهلني مدى هدوئه. أسير خارجًا إلى الحديقة وأقف في غاية السكون متأمِّلا في أنَّه ما من شيء يشي بأنَّ حياة شخص تنتهي في غرفة نوم بالأعلى.

يقع البيت في حيٍّ أقيم في الأربعينيات والخمسينيات على يد المعماري لوي باراغان[1]. كان قوامه في الأصل مساكن حدائيَّة، لحقت بها في السبعينيَّات والثمانينيَّات قصور مشكوك في قيمتها المعمارية. لم يكن أبي متحمِّسًا قط للمنطقة. لكنه عثر فيها على بيت لمصمِّم، يدعى مانويل بارّا[2]، اخترع طرازه الخاص - فهو مزيج مصهور من الأسلوب الاستعماري المكسيكي، والأسباني، والمراكشي، يدمج أطر الأبواب والشبابيك، ويبني بحجارة مستخلصة من خرائب. وبرغم قائمة المكوِّنات الغريبة، تبدو البيوت التي

---

(1) Luis Barragán (1902-1988) معماري مكسيكي.

(2) Manuel Parra (1911-1997) معماري مكسيكي.

صمَّمها أصيلة ومضيافة. كان أبي معجبًا دائمًا بعمله، ورأى طرافة، إن لم يكن شيئًا من الانحراف، في سكنى أحد بيوته في هذا الحيِّ ذي القصور الرخاميَّة المبهرجة الحداثية المتذاكية.

في سنوات مراهقتي، كنت كثيرًا ما أستلقي على ظهري مفترشًا العشب ناظرًا إلى السماء شاعرًا أنِّي مرتبط ارتباطًا وثيقا بهذه الحديقة. (وحتَّى في ذلك الحين كنت واعيًا أنَّ ذلك الموضع غير مثير ولا يليق بصبيّ أن يكون موضعه المفضَّل). ومن نقطة المراقبة تلك كانت نهاية النهار جميلة. والذين قضوا سنين في مكسيكو سيتي، لن يندهشوا من أنَّ فترات الظهيرة كثيرًا ما تكون فريدة. في بعض الأحيان، بعد المطر، يحمل الهواء شفافيةً جديدة وعبقًا لطيفًا، وترى من البعد قمة أجوسكو[1]، ويحلُّ على المدينة سكون مباغت، وإحساس بأنَّك لست في الحاضرة الفوضويَّة الملوَّثة، وإنَّما أنت في الوادي البديع الذي كانته في ماضي الزمن، وللحظة ينتابك إحساس فيه التوق وفيه الاحتمال. تزوَّج أخي بزوجته هنا في طقس مشمس، وخلال الحفل الذي أقيم بعد ساعة من الزواج ضربت عاصفة هائجة الخيام بوابل حبَّاته في حجم كُريَّات الزجاج. ابتهج أبي. فما كان لذلك، في ما رأى، إلا أن يكون بشيرا بالطيِّبات. وها هما متزوِّجان منذ أكثر من ثلاثين سنة.

أقيمت حفلة أيضًا في هذه الحديقة بعيد ميلاد أبي الستين، واختار ألا يدعو إليها إلا الأصدقاء من أبناء جيله. استاء بعض أصحابه الأصغر سنًّا، وواجهوه بذلك. فكان حازمًا معهم، ولم يلجأ إلى الاعتذار، بل قال: إن البيت لا يمكن أن يتَّسع لكلِّ من عرفهم في حياته شديدة الشسوع، فقصر اختياره على المنتمين إلى جماعته السنيَّة. وخجل بينه وبين نفسه من إيذاء

---

(1) يقع بركان أجوسكو، البالغ ارتفاعه 3930 مترا، جنوبي مدينة مكسيكو سيتي وهو أعلى نقطة فيها.

مشاعر من تأذَّت مشاعرهم.

أسير في طابق البيت الأرضيّ، وقد نُظِّف المطبخ بعد الغداء، وباتت غرفة المعيشة تبدو كما دأبت دائمًا أن تكون. بالطبع هذا ليس دقيقًا، لكن الأثاث واللوحات والتحف الصغيرة تراكمت طبقات فوق طبقات على مدار العقد تلو العقد، مكوِّنة شيئًا جديدًا غامضًا وفي الوقت نفسه قديمًا باعثًا للطمأنينة. تأريخ أيِّ غرض هناك بأيِّ قدر من الدقة أمر محال. ثمَّة تكوين صخري عتيق صغير يشبه زهرة بتلاتها في حدَّة سكاكين المطبخ وهو موجود بالفعل منذ أوائل الثمانينيات، وقصيدة بخط يد رفائيل ألبرتي[1] لا بدَّ أنهَّا ترجع إلى السبعينيَّات إثر عودته إلى مدريد بعد أربعين سنة في المنفى، وبورتريه ذاتي لأليخاندرو أوبريغون[2] فيه ثقوب شظايا (فقد سكر الفنان ذات ليلة فأطلق الرصاص من مسدَّس على عين صورته المرسومة بعدما أغضبه شجار أبنائه الكبار على ملكيَّة اللوحة)، ودفتر صور لجاك هنري لارتيغ[3] ظللت أطالعه منذ أن كنت في الثانية عشرة.

طوال قرابة خمسة وعشرين عامًا، كان في البيت ببَّغاء يمكن سماعه في بعض الأحيان وهو يصفِّر لفتاة جميلة، لا وجود لها، حينما يغلق باب أو يعلو رنين هاتف في ما بعد الظهيرة، وبعد بذله ذلك الجهد كان يوضع ليستريح في هدوء لما بقي من اليوم. لم يكن الكثير منَّا يولون الطائر اهتمامًا كبيرًا، لكنَّ قلوب الجميع انفطرت حينما مات.

---

(1) Rafael Alberti (1902–1999) شاعر ورسام أسباني من جيل 1927، حصل على جائزة ثربانتس سنة 1983.

(2) Alejandro Obregón (1920–1992) فنان تشكيلي كولومبي.

(3) Jacques-Henri Lartigue (1894–1986) فنان فوتوغرافيا ورسام فرنسي.

16

أصعد إلى الطابق العلويِّ وألقي نظرة على غرفة أبي. الممرِّضة النهارية تدوِّن ملاحظات بينما المساعد يقرأ مجلَّة. أبي ساكن تمام السكون، في ما يشبه النوم، لكن الغرفة تبدو مختلفة عن بقيَّة البيت. برغم كل هذه الوداعة، يبدو الوقت الآن وكأنَّه أسرع حركة هنا، كأنَّه في عجلة من أمره، ملهوف على إتاحة وقت لمزيد من الوقت. أمر محبط.

واقفًا على مقربة من طرف السرير، أنظر إليه، وقد تقلَّص بنيانه، شاعرًا أنَّني في آن واحد ابنه (ابنه الصغير) وأبوه. أعي تمامًا أنَّني أنعم بنظرة فريدة إلى سنواته السبعة والثمانين. البداية، والوسط، والنهاية، كلُّها هنا أمامي، مفتوحة انفتاح كتاب على شكل أكورديون.

إحساس باعث على الدوار أن تكون على علم بمصير إنسان. سنوات ما قبل مولدي لا تعدو بالطبع تأليفًا ممَّا حكاه هو لي، أو حكاه أخوته أو أمِّي، أو رواه عنه أقارب وأصدقاء وصحفيُّون وكتَّاب سير، وصقلته أنا بخيالي: كان أبي ولدًا في السادسة يلعب حارس مرمى في فريق كرة قدم ويشعر أنَّه أمهر من المعتاد. بعد سنة أو اثنتين، ينظر إلى خسوف شمسي دونما استعمال نظَّارات ملائمة فيفقد إلى الأبد النظر من مركز عينه اليسرى. يشاهد من باب بيت جَدَّيه الرجال سائرين يحملون جسد رجل ميِّت، والزوجة تسير وراءهم حاملة طفلًا في يد وفي الأخرى رأس الزوج الذبيح. يبصق في نصيبه من هلام الفاكهة أو يضع رقائق لسان الحمل في حذائه ويأكله منه ليمنع أخوته من السطو على طعامه. يقوم، في مراهقته، برحلة عبر نهر مغدلينا إلى

مدرسة داخليَّة، شاعرًا بالوحدة إلى حدِّ البؤس. ومن الوقت الذي قضاه في باريس، ظهيرة زار فيها امرأة وحاول أن يطيل زيارته إلى أن يُدعَى إلى العشاء فقد كان مفلسًا ولم يكن تناول طعامًا منذ أيَّام. ولمَّا فشل في ذلك، نقَّب في قمامة السيِّدة وهو خارج وأكل ما عثر عليه. (حكى هذا لآخرين أمامي وأنا في الخامسة عشرة، فشعرت بحرج كالذي يمكن أن ينتاب مراهقًا تجاه أبيه). وكانت في باريس أيضًا فتاة تشيليَّة كئيبة اسمها فيوليتا بارّا[1]، وكان بين الحين والآخر يصادفها في تجمُّعات مغتربي أمريكا اللاتينية. كانت تكتب، وتغنِّي غناء جميلًا، أغنيات تفطر القلب، وفي النهاية أنهت حياتها. وذات أصيل في مكسيكو سيتي سنة 1966 توجَّه إلى الغرفة التي كانت أمِّي جالسة فيها، تقرأ في سريرها، وأعلن لها أنَّه كتب للتوِّ وفاة الكولونيل أورليانو بوينديا.

قال لها ذاهلًا «لقد قتلت الكولونيل».

كانت تعرف معنى ذلك بالنسبة إليه، فجلسا معا صامتين، وثالثهما الخبر الحزين.

حتى الفترة الطويلة العامرة بالثناء الأدبي العظيم نادر المثال، والثروة، والنفوذ، لم تخل من أيام قبيحة بطبيعة الحال. وفاة ألفارو سيبيدا[2] في السادسة والأربعين بالسرطان واغتيال الصحفي غيليرمو كانو[3] على أيدي تكتُّلات تجَّار المخدرات وهو في الحادية والستين. وفاة شقيقين (هما أصغر الأخوة الستة عشرة)، الاغتراب الناجم عن الشهرة، فقدان الذاكرة وما رافقها من العجز عن الكتابة. أعاد أخيرًا قراءة كتبه في شيخوخته، فبدا له كأنَّه يقرأها

---

(1) Violeta Parra (1917-1967) موسيقية وكاتبة أغاني وفنانة بصرية تشيلية.

(2) Álvaro Cepeda (1926-1972) صحفي وروائي وقاص وسيناريست كولومبي.

(3) Guillermo Cano (1925-1986) صحفي كولومبي.

للمرة الأولى. سألني ذات مرَّة «من أين بربِّك يأتي هذا كلُّه؟». واستمرَّ في قراءتها إلى النهاية، حتى بات يعرفها في آخر المطاف من أغلفتها الأليفة لكنَّه لا يفهم من فحواها غير أقلِّ القليل. في بعض الأحيان، وهو يغلق كتابًا، كان يفاجأ إذ يجد صورته على غلافه الخلفي، فيعاود فتحه ويحاول أن يقرأه من جديد.

واقفا هناك، عند طرف سريره الأدنى، يروق لي الظنُّ بأن مخَّه، برغم الخرف (وربما بعون من المورفين) لم يزل مرجل الإبداع الذي كانه على الدوام. قد يكون مهشَّما، عاجزًا عن الرجوع إلى أفكار أو الالتزام بخطوط قصَّة، لكنَّه لم يزل نشطًا. كان خياله دائمًا ذا خصوبة فاتنة. ستَّة أجيال من آل بوينديا هي قوام **مئة عام من العزلة** لكن كانت لديه مادَّة تكفي جيلين إضافيين. قرَّر ألا يضمَّها خشية أن تطول الرواية أكثر ممَّا ينبغي فتصبح قراءتها مضجرة. كان يرى أنَّ الانضباط الهائل هو أحد أحجار الزاوية في كتابة الرواية، وبخاصَّة حينما يتعلَّق الأمر بتأطير قالب الحكاية وحدودها. كان يختلف مع القائلين بأنَّ الرواية قالب أكثر حرية، ومن ثمَّ أيسر، من السيناريو أو القصَّة القصيرة. وكان يذهب إلى أنَّه لا بديل أمام الروائيِّ أو الروائيَّة عن وضع مسوَّدة لخارطة طريق صارمة بهدف اجتياز ما كان يسمِّيه بـ «أصقاع الرواية المخاتلة».

الرحلة من أراكاتاكا سنة 1927 إلى مكسيكو سيتي في هذا اليوم من 2014 تكاد تماثل طولًا وتفرُّدًا أيَّ رحلة يمكن أن يقطعها أحد، وذانك التاريخان المثبتان على شاهدة القبر لا يمكن أن يحلما بإحاطتها يومًا. ومن حيثما أقف، تبدو لي هذه الحياة من أسعد الحيوات حظًّا، ومن أكثر ما يمكن أن يكون قد عاشه رجل من أمريكا اللاتينية مزايا. وكان أبي ليوافقني على هذا قبل أن يوافقني أيُّ شخص عداه.

17

في ليلة الأربعاء، النوم متقطِّع. يقلقني أنَّني سوف أستيقظ على نقر باب الغرفة ينبئني أنَّه مات. أنهض عند الفجر وأسير إلى غرفته، وتخبرني الممرِّضة أنَّه لم يتحرَّك مطلقا طيلة الليل. لم يزل في مثل وضعه الذي رأيته عليه آخر مرَّة، لا يكاد تنفُّسه يُحَسّ. أتساءل إن كانت الممرضتان لم تزالا تفردان أطرافه وتعيدان تغيير وضعه اجتنابًا لتقرُّحات الفراش أم ترانا تجاوزنا هذا. أستحمُّ وأغيِّر ثيابي وأرجع إلى الغرفة. الآن في نور الصباح يبدو شخصًا آخر، توءمًا بسيطًا ذا قسمات كالحة وبشرة شفَّافة لا أعرفها جيِّدًا. ينتابني شعور مختلف تجاه هذا الرجل. انفصال. لعل هذا هو الغرض من التحوُّل، أن يكون عونًا لك على الانفكاك، تمامًا كما أنَّ نظرة بسيطة إلى ابنك إثر ولادته تبعث فيك على الفور مشاعر الارتباط.

في المطبخ أجلس وحيدًا إلى المائدة مع الطاهية الصامتة، التي عملت على فترات في هذا المنزل طوال عقود والتي كان أبي يجد معها متعة كبيرة بسبب مزاجها الناري. تلقي عليَّ نظرة عند لحظة معيَّنة لكنَّها لا تقول شيئًا. وسرعان ما تخرج لتلقي نظرة على سيدها «عسى أن يكون بحاجة إلى أيِّ شيء» كما تقول.

بعد الإفطار أسمع أغنيات الفاليناتو[1] في غرفة أبي. وذلك قالبه الموسيقيُّ

(1) Vallenato قالب موسيقي غنائي كولمبي، يتسم الغناء فيه بالحكائية ويغلب على الموسيقى استعمال الأكورديون أو الغيتار مع إيقاع من طبلة الكاتو cato وغيرها - بريتانيكا

المفضَّل الذي كان دائم الرجوع إليه بعد فترات الخيانات مع موسيقى الحجرة أو أغنيات البوب. وحتَّى مع تسارع فقدانه الذاكرة ظلَّ بوسعه إذا ما ذكر له البيت الاستهلاليُّ أن يستدعي من الذاكرة الكثير من قصائد العصر الذهبيِّ الأسباني[1]. وبعد أن تضاءلت تلك الملكة، ظلَّ بوسعه أن يدندن بأغنياته المفضّلة. والفالیناتو قالب فنِّيٌّ وثيق الصلة بالعالم الذي ولد فيه حتى أنَّه في الأشهر الأخيرة التي عجز فيها عمليًّا عن تذكُّر أيِّ شيء، ظلَّت عيناه تتَّقدان بالإثارة مع نغمات الأكورديون الاستهلالية لفالیناتو كلاسيكي. كانت سكرتيرته كثيرًا ما تضع له مجموعات مطوَّلة منها وهو جالس في مكتبه، سعيدًا بوقوعه في شرك سرداب زمنيّ. والآن في يوميه الأخيرين، بدأت الممرِّضات تشغِّلنها بصوت عال في غرفته، والشبابيك مفتوحة على اتساعها، فتملأ البيت. بعضها من تأليف رفيقه رفائيل إسكالونا[2]. أراها، في هذا السياق، آسرة. ترجع بي إلى آماد بعيدة في ما تقدَّم من حياته مثلما لا يقوى على ذلك أيُّ شيء، فأرحل معها، ومعها أرجع إلى الحاضر، إذ تبدو أشبه بتهويدة أخيرة.

كان أبي يعجب بمقدرة لدى كتَّاب الأغنيات، ويحسدهم عليها، وهي مقدرتهم على قول الكثير للغاية، وبغاية البلاغة، في القليل جدًّا من الكلمات. حدث وهو يكتب **الحب في زمن الكوليرا** أن أسلم نفسه لحمية غذائيَّة قوامها أغنيات البوب الغرامية اللاتينية، أغنيات الغرام الضائع أو الحب من طرف واحد. قال لي إنَّ الرواية ما كانت لتكون في مثل ميلودرامية كثير من هذه

---

(1) حقبة في الأدب الأسباني تمتدُّ بين مطلع القرن السادس عشر وأواخر القرن السابع عشر وأبرز أسماء هذا العصر ثربانتس صاحب دون كيخوته.

(2) Rafael Escalona (1926-2009) موسيقي كولومبي برع في قالب الفالیناتو وكان من أقرب أصدقاء ماركيز، وتذكر ويكيبديا أن الأخير قال له مرة إن مئة عام من العزلة ليست إلا فالیناتو في مئات الصفحات.

الأغنيات، لكنَّه تعلَّم منها الكثير من التقنيات التي تستثير بها المشاعر. لم يكن متعاليًا قطُّ في ما يتعلَّق بالقوالب الفنيَّة وكان يستمتع بأعمال أشخاص متنوِّعين تنوُّع بيلا بارتوك وريتشارد كلايدرمان[1]. وحدث مرَّة أن مرَّ بي وأنا أشاهد إلتن جونز يعزف أفضل أغنياته في التليفزيون منفردًا على البيانو. ولم يكن أبي يعرفه إلا لمامًا، لكنَّ الموسيقى أوقفته في طريقه، وأجلسته أخيرا ليتابع العرض كلَّه، منبهرًا. قال «اللعنة، هذا الرجل بوليرستا لا يعقل». يقصد أنَّه مطرب بوليروس[2]. وكان دأب أبي الدائم أن يُرجع الشيءَ إلى ثقافته هو. لم ترهبه قطُّ الإحالات ذات المركزيَّة الأوربيَّة التي كانت شائعة في كلِّ مكان. فقد كان يعلم أنَّ الفنَّ العظيم قادر أن يزدهر في عمارة سكنية في كيوتو أو في مقاطعة ريفيَّة في الميسيسيبي وكانت لديه قناعة لا تتزعزع بأنَّ أيَّ ركن ناء متزعزع في أمريكا اللاتينيَّة أو الكاريبي قادر بقوَّة على تمثُّل التجربة الإنسانيَّة.

كان قارئًا نهمًا، يستمتع بأشياء من قبيل مجلة **هولا**[3]، أو تقارير الحالات التي يكتبها الأطبَّاء، أو مذكّرات محمَّد علي[4]، أو عمل إثاري لفريدريك فورسايث[5] الذي كان يرثي لآرائه السياسية. كان من بين أحبَّائه الأدبيِّين

---

(1) Béla Bartók (1881–1945) مؤلف موسيقي وعازف بيانو مجري. Richard Clayderman (1953 -) عازف بيانو فرنسي. Elton John (1947–) مطرب وموسيقي بريطاني يحمل لقب سير.

(2) Bolero جنس موسيقي نشأ في شرق كولمبيا في أواخر القرن التاسع عشر ولا علاقة له بالرقصة الإسبانية التي تحمل الاسم نفسه - ويكيبديا.

(3) Hola! أسبوعية إسبانية معنية بأخبار المشاهير.

(4) محمد علي (1942–2016) الملاكم الأمريكي الشهير.

(5) Frederick Forsyth (1938–) روائي وصحفي إنجليزي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الأقلِّ شهرة ثورنتن ويلدر[1]، وكانت روايته «منتصف مارس» على الطاولة المجاورة لسريره طوال ما بدا لي أنه نصف عمري. كان هناك أيضًا قواميس وكتب مراجع لغويَّة، كان دائم الرجوع إليها. لم يحدث مرَّة أن رأيته يجهل معنى كلمة في الإسبانيَّة، وكان بوسعه أيضًا أن يقدِّم تخمينًا منطقيا لاشتقاقها. كنت أكافح ذات مرَّة لتذكُّر كلمة تعني التفسير النقدي لنصٍّ، فخرج عن طوره للحظة، منحِّيًا كلَّ ما بين يديه، باذلًا جهدًا مستعرًا للإتيان بالكلمة التي كان يشعر أنَّها على طرف لسانه. وتبدَّت سعادته في صياحه بسرعة بكلمة «تأويل Exegesis». لم تكن كلمة غامضة، لكنَّها بعيدة عن عالمه، فهي في رأيه كلمة تنتمي إلى الاهتمامات الأكاديميَّة والثقافيَّة التي كانت جميعًا موضع ارتياب قليل منه.

(1) Thornton Wilder (1897-1975) مسرحي وروائي أمريكي والرواية المشار إليها لاحقًا هي Ides of March وصدرت سنة 1948.

18

في وقت لاحق من ذلك الصباح، يُعثر على طائر ميِّت داخل البيت. كانت الشرفة الخلفيَّة قد أغلقت منذ سنوات قليلة وتحوَّلت إلى منطقة للزيارة وتناول الشاي مطلَّة على الحديقة، فجعلت جدرانها من زجاج، لذلك يعتقد أنَّ الطائر دخلها، وتشتَّت، واصطدم في الجدران الزجاجيَّة، فوقع ميِّتًا على الأريكة في البقعة التي درج أبي على الجلوس فيها. تخبرني سكرتيرة أبي أنَّ الموظَّفين في البيت منقسمون إلى جماعتين: الذين يعتقدون أنَّه نذير شرٍّ ويريدون التخلُّص من الطائر في سلَّة القمامة، والذين يعتقدون أنَّه بشير خير ويريدون دفنه وسط الزهور. للقماميِّين الغلبة واليد العليا، ومن ثم فالطائر بالفعل في سلَّة القمامة المجاورة لباب المطبخ. بعد مزيد من الجدال، يوضع الطائر في ركن من الحديقة، على وجه الأرض حاليًّا، بينما يجري تحديد مثواه الأخير. ينتهي مدفونًا قرب الببَّغاء، في قطعة من الأرض تضمُّ جروًا أيضًا. حِيلَ دائمًا بين أبي وبين معرفة موضع مقبرة الحيوانات، فقد كان ذلك ليؤرِّقه.

19

نجتمع عند الظهيرة، أمِّي، وأخي الذي جاءت أسرته من فرنسا في المساء السابق. وأيضًا وصلت حديثًا من بوغوتا في ساعات ما قبل الفجر قريبةٌ لنا من جهة أمِّنا عاشت معنا في طفولتها فترات طويلة فهي قريبة من أبويَّ قرب ابنة من صلبهما. الحالة المزاجيَّة رائقة على نحو مدهش، والسبب في ما أتصوَّر أنَّه لا يوجد من يميل إلى الحداد على شخص لم يزل حيًّا، وأنَّه في النهاية التئام شمل، وأغلبه من الشباب.

أرى عبر الباب الزجاجي سكرتيرة أبي خارجة من مكتبه في مؤخِّرة الحديقة تمضي بسرعة نحونا. تلتقي عيناي بعينيها، تصيح أنَّ الممرِّضة تريد أن تتحدَّث معي. تحاول ألا تثير قلق أيِّ أحد، لكن واضح أنَّ أمرًا قد طرأ. أخرج بأكبر قدر أستطيعه من الهدوء، لكن الصمت يخيِّم على الغرفة.

فيما أقترب من غرفة الضيوف، تخرج الممرِّضة النهارية لتقابلني. تقول في توتُّر «قلبه توقَّف». فيما أدخل الغرفة، أجد في البداية أنَّ أبي يبدو غير مختلف بالمرَّة عمَّا كان عليه قبل أقلّ من عشر دقائق، ثمَّ لا تمضي ثوانٍ قليلة حتى أدرك فداحة خطئي. يبدو خربًا، وكأنَّ شيئًا ما ضربه ـ قطار، أو شاحنة، أو كأنَّما صعقه البرق ـ فلم يترك به جروحًا لكنَّه استلَّ منه الحياة دون أن يريق قطرة دم. أدور حول الفراش وأتقدَّم إليه وأنا أسبُّ وألعن بأوهى صوت لديَّ. تراوح الممرِّضة بين التحقُّق من النبض باستعمال سمَّاعة طبيب وبين الاتصال بطبيب. أكاد أشعر أنَّ قلقها الآن ينبع من احتمال أن ينصبَّ غضبي عليها لعدم تحذيري مسبقًا حسبما طلبت، ولكن لأنَّني لست ملتفتًا إليها

مباشرة، فإنَّها تتجاوز هذا التخوُّف.

تصل أخيرًا إلى طبيب القلب الخاصِّ بأبي. تشرح له أنَّه ما من نبض منذ قرابة ثلاث دقائق. يطلب الطبيب أن يحدِّثني. يعزِّيني ويعرض عليَّ المجيء إلى البيت، لكنَّني أعرف أنَّه في ذلك اليوم بعيدٌ جدًّا، فهو يوم إجازة له، فأقول له إنَّه لا داعي لهذا. كنَّا قد اتفقنا سلفًا على أن يقوم عند حلول الوقت بتنبيه كبير الأطبَّاء المقيمين في المستشفى فيأتي إلى البيت وينهي الإجراءات الورقيَّة. أتصل بالطابق السفليِّ. تردُّ أمِّي فأقول لها إنَّ «قلبه توقَّف» ولا أكاد أكمل حروف الكلمة الثانية دون أن يخذلني صوتي، لكنَّني أعتقد أنَّها تضع السمَّاعة قبل أن تسمعها. أرجع إلى أبي. رأسه مائل إلى الجنب، فمه فاغرٌ قليلًا، ويبدو في غاية الضعف. رؤيته على تلك الحال، بحسب أكثر المقاييس إنسانيَّة، أمر مريع، ومريح، معًا.

أرى أمي تصعد الدرج وتتَّجه إلى غرفة الضيوف يليها أخي وأسرته. هي في العادة الأبطأ حركة، لكن واضح أنَّ الجميع رأوا أن يتركوا لها التقدُّم. كانت قد اعتمدت عليَّ أنا وأخي في اتخاذ عشرات القرارات، على مدار الأسابيع القليلة الماضية، لكنَّها حينما تدخل الغرفة وترى أبي، يبهتني أن أرى أنَّ العقود التي قضياها معا تمنحها السلطة كاملة على هذه اللحظة. كانا في يوم من الأيام غريبين أحدهما عن الآخر، وذلك ما لا يستوعبه الخيال. التقيا في البداية بوصفهما جارين، وحينما كان هو في الرابعة عشرة وهي في العاشرة، طلب منها الزواج هازلًا، فرجعت إلى البيت جارية باكية. وفي يوم زفافهما، قبل هذه اللحظة بسبعة وخمسين عاما وثمانية وعشرين يومًا، لكن في الوقت نفسه تمامًا من اليوم، أبت أن ترتدي فستان الزفاف إلى أن عرفت أنَّه واقف أمام الكنيسة لكي لا تسنح أدنى فرصة لأن تجد نفسها وحيدة متروكة عند مذبح الكنيسة في ثوب الزفاف.

أوَّل ما يخطر لأمِّي فور اجتيازها باب الغرفة هو أن تتولَّى المسؤولية. تسند

الممرِّضة والمساعد رأس أبي ويعملان على إبقاء فمه مغلقًا بربط منشفة حول فكِّه ورأسه. تصيح أمِّي وهي تقترب من السرير «أقوى». وتنظر إلى أبي من أعلاه إلى أدناه منفصلة عنه كأنَّه مريض لديها وتقول «نعم، هكذا». تغطِّيه بالملاءة حتى صدره، وتفردها عليه، وتضع يدها على يده. تنظر إلى وجهه وتمسِّد جبهته، وللحظة لا يسبر لها غور. ثم تغلبها رعشة عابرة، وينفطر دمعها. «يا له من شيء صغير مسكين، أليس كذلك؟» حتى قبل ألمها وحزنها تغلبها شفقة عميقة عليه. لم أرها تبكي غير ثلاث مرَّات من قبل على مدار حياتها. هذه المرَّة لا يطول بكاؤها إلا لثوانٍ قليلات، لكنَّ فيها قوة انفجار طلقات مدفع رشَّاش.

اللحظات القليلة التالية غائمة. تمضي أمي مبتعدة وتجلس في الطرقة. للمرَّة الأولى منذ شهور تشعل سيجارة بدلًا من سيجارة إلكترونيَّة. أطلب من الممرِّضة أن تعيد تركيب طاقم أسنان أبي قبل أن يستقر فكَّاه، وأشعر بارتياح حقيقيٍّ إذ أرى كم بات شكله أفضل بعد تركيبه. يقف أخي وأسرته حول السرير في اضطراب. عرف ابنه وابنته الكبيران أبي جيِّدًا وهما صغيران، قبل أن تبدأ ذاكرته في التلاشي. يبدوان في غاية الحزن. ينتشر الخبر، ووفق نظام لم يعد بوسعي أن أتذكَّره، يبدأ الشخص تلو الشخص ممَّن يعملون في البيت يشقُّون طريقهم إلى الباب أو إلى جوار السرير فيلقي نظرة العاجز عن التصديق. لا يمنع الخجل أو الحرج أحدا من التعبير عن ألمه أو حزنه أمام الآخرين. يتلاشى المحيط ويكون لكلِّ شخص لقاؤه الفريد، لا بالراحل وحده، بل وبالحدث نفسه، وكأنَّ الموت ملك مشاع. لا يمكن أن ينكَر على أحد علاقته به، وعضويته في تلك الجمعية. والموت بوصفه شيئًا، لا بوصفه انتفاء شيء، أمر تبعث رؤيته على الانتباه. يبدو أنَّ ذلك هو الحال حتى مع الممرِّضات الحاضرات في الغرفة. يواصلن عملهن، لكن يبدو لي أنَّهن في رؤوسهن عاجزات عن اجتناب التأمُّل. فذلك حدث لا يتقادم ولا يشيخ.

20

تعنى الممرِّضة النهاريَّة ومساعدها بغسل جثَّة أبي وتجهيزها لرحلتها إلى دار الموتى[1]. تسأل الممرِّضة أمِّي إن كانت تحبُّ إلباس أبي ثيابًا معيَّنة. أجابت بالنفي فاقترحت الممرضة كفنًا بسيطًا. تأتي أمِّي بملاءة سرير رقيقة بيضاء مزخرفة وتمدُّها إلى الممرِّضة في طقس صغير.

فيما يجري تجهيز أبي، يعمل طبيب على إكمال الأوراق اللازمة لشهادة الوفاة. ندرك أنَّ الاتصال بالصحافة لا بدَّ أن يتأخر. ثمَّة صديق مقرَّب في الجوِّ في هذه اللحظة، قادم من كولومبيا لوداع أبي، وصديقة من المكسيك راجعة بعد أن قطعت إجازتها العائلية. ولكنَّ قلقي الأكبر منصبٌّ على ابنتيَّ المراهقتين، فهما أيضًا في رحلة جويَّة مع زوجتي، قادمات جميعا من لوس أنجلوس. لا أريدهنَّ أن يصلن فيفتحن هواتفهنَّ ليقرأن أنَّ جدَّهن قد مات بالفعل. لذلك نقرِّر التريُّث وعدم الاتصال بأحد إلى أن تهبط جميع الطائرات ويصل إلينا الجميع. كان أبي ليضحك من حالنا. «الجميع لبسوا ثيابهم دون أن يذهب أحد منهم إلى مكان».

حينما أنظر إلى الغرفة من جديد، يكون جسد أبي بالكامل مغطًّى من قدميه وحتى قاعدة جمجمته. عدّلوا السرير بحيث يبقى جسده مفرودًا، فيما عدا وسادة قليلة السمك تحت رأسه ترفعه قليلًا جدًّا. نظِّف وجهه، وأزيلت المنشفة التي كانت قد عقدت حول رأسه. استقرَّ الفكُّ وقد ركّب طاقم

---

(1) the mortuary: حيث تحفظ الجثث في انتظار الجنائز وتجهَّز للدفن.

الأسنان. يبدو عليه الشحوب والجدِّيَّة، والسكينة أيضًا. مويجاته الرماديَّة مفرودة على رأسه تذكِّرني بتمثال نصفيٍّ نبيل. تضع ابنة أخي زهورًا صفراء على بطنه. كانت زهوره المفضلة، وكان يعتقد أنَّها تجلب الحظَّ السعيد.

على مدار الساعات القليلة التالية نجلس مع أمِّي وهي تفتح نشرة الأخبار ـ كما تفعل كثيرًا ـ لإلهاء نفسها. في التليفزيون برنامج عن حياة أوكتافيو باث[1]، الشاعر والدبلوماسي الذي مات قبل سنوات قليلة وكان صديقًا بعيدا لأبويّ. تتابع أمِّي دقائق قليلة من البرنامج، لكن واضح من التعبير المرتسم على وجهها أنَّ أفكارها منصبَّة على الأفلام الوثائقيَّة التي تخمِّن أنَّها سوف تشاهدها خلال الأيَّام والأسابيع التالية.

فجأة تقول، غير موجِّهة كلامها إلى أحد بعينه، إنَّ أبي قد يكون بالفعل مع ألفارو، الصديق الذي مات في السنة السابقة، «يشربان الويسكي ويثرثران بأي لغو».

يرنُّ هاتف المنزل، وتردُّ بنفسها، وذلك أمر نادرًا ما تفعله. هو صديق لا يريانه كثيرًا. يتَّصل ليطمئنَّ على صحَّة أبي، ويعرض أيَّ مساعدة قد تكون لازمة. تنصت أمِّي في صبر وتشكره في فتور، وعندما تسنح الفرصة الأولى تخبره أنَّ أبي مات بالفعل. لا داعي لسماع صوته في الناحية الأخرى لتخيُّل وقع النبأ الصادم، وبخاصَّة مع النبرة الباردة التي بلغه بها. تمضي فتوضِّح له أنَّ كلَّ شيء حدث في الساعة السابقة، كمن تتكلَّم عن توصيل طعام. أبناء أخي، الذين يعرفونها جيِّدًا، مرعوبون، لكنَّهم يكافحون أيضًا للسيطرة على الضحك. ولا أكاد ألقي عليهم نظرة عالمة حتى يطلقوه صاخبًا ويضطروا إلى الابتعاد.

---

(1) Octavio Paz (1914-1998) شاعر مكسيكي حصل على نوبل في الأدب سنة 1990.

21

وصل بالفعل الصديق القادم من كولومبيا، لكنَّني لا أعرف بوصوله إلى أن يرنّ جرس الباب ويقال لي إنَّه في الطابق الأرضي. أنزل وأسير بسرعة إلى المطبخ حتَّى أوشك أن أصطدم به، ودونما تحيَّة لائقة أقول على الفور إنَّ أبي مات. هو أحد أقدم أصدقاء أبي، وقد صدمته. مذهولًا، عاجزًا عن الكلام، محملق العينين، يبدو وكأنَّه يستعيد في رأسه عمرًا من الصداقة في ثوان معدودات. يخطر لي أنَّني لا بدَّ أن أكون متعبًا جدًّا وشديد التوتُّر فأبلغ الخبر بهذه الطريقة الخرقاء وانَّ عليَّ أن أكون أفضل من هذا.

الصديقة العائدة من إجازتها تصل هي الأخرى، وأخيرا تهبط الطائرة بزوجتي فتتَّصل بي من داخلها. أبلغها بالخبر ويهزّني حزنها لدرجة أن أعجز عن الكلام مع ابنتيّ. أريد أن أنتظر إلى أن أراهما وجها لوجه.

أتَّصل بقليل من الأصدقاء والأقارب، فإذا بكلِّ اتصال أصعب من سابقه. هم مجموعة ظلَّت مطَّلعة على المستجدَّات، فلا يندهش منهم أحد، لكنَّ كلَّ واحد يقابل الخبر بالصمت أو ما يقارب الصمت. هو فراغ أكثر ممَّا هو صمت. أغلبهم مكلَّف بالاتَّصال بآخرين فيشرعون في عمل ذلك دونما كثير من الكلام. وكيلة أبي لقرابة خمسين سنة لا تقول أكثر من «ذلك مريع»، وتقولها كمن تقول إنَّ مستحيلات الدنيا التي ظلَّت مستحيلة منذ الأزل بدأت أخيرا تتحقَّق. أستطيع أن أراها بعيني عقلي، مغمضة، مستغرقة في تلك الفكرة، محاولة التعمُّق داخل نفسها حيث يمكن لما يستعصي على

الخيال أن يبدأ تدريجيًّا في التحقُّق. تكرر «ذلك مريع»، ثم ننهي المكالمة. ومع كثير من أصدقاء العمر لأبي أتلقَّى ردَّ الفعل نفسه. فمن وراء الحزن تكذيب لأن يكون ذلك الرجل المفعم بالحياة والمقبل عليها والمتشرِّب بها وبالكدح فيها حتى الثمالة قد قضى نحبه.

أجلس لأتصل بالمنابر الإعلاميَّة الإخبارية التي اتفقنا عليها، ولكن الوقت متأخر من نهار **خميس العهد**[1]، فتتبينَّ استحالة الوصول إلى المؤسَّسات الإخباريَّة في البلاد الكاثوليكيَّة. دورة الأخبار بطيئة بطئها في عشية الكريسماس، ومن ثمَّ فالجميع في إجازات حتى يوم الاثنين. كنَّا قد ظللنا متململين، جالسين لقرابة ساعتين أسرى خبر يتوقَّع الجميع منَّا إعلانه، وها نحن لا نجد من يسمعه. وأخيرًا، نطلب من الصديقة التي قطعت إجازتها العائلية، وهي شخصيَّة إذاعيَّة ذات جماهيرية ضخمة أن تعلن الخبر عبر وسائل التواصل الاجتماعي. ولا تنقضي غير دقائق قليلة حتى يرنَّ هاتف المنزل وتشرع الهواتف المحمولة في الرنين ويتضاعف عدد الصحفيين والقلقين وضبَّاط الشرطة على باب البيت.

---

(1) Good Thursday: خميس العهد، ويعرف أيضا بخميس الأسرار، وهو ذكرى العشاء الأخير ويسبق الجمعة الطيبة وسبت النور وعيد الفصح.

القسم الثالث

عثروا عليها ميتة في صباح يوم خميس العهد. دفنوها في تابوت لا يكاد يفوق في حجمه السلة التي وصل فيها أورليانو، ولم يحضر جنازتها إلا قلة قليلة من الناس، من ناحية لأنه لم يكن متبقّيًا الكثيرون ممن يتذكرونها، ومن ناحية أخرى لأن الحرارة في تلك الظهيرة اشتدت حتى أن الطيور فقدت صوابها، وصارت ترتطم في طيرانها بالجدران ارتطام طلقات الرصاص وتمرق عبر شبك النوافذ لتموت في غرف النوم.

مئة عام من العزلة[1]

(1) مشهد وفاة أورسولا في الفصل السابع عشر من الرواية في ترجمتها الإنجليزية، وقد اطلعت على ترجمة صالح علماني في صفحتي 414 و415 من طبعة دار المدى، 2005.

22

لا يمضي غير وقت قصير على إذاعة نبأ وفاة أبي، إلا وتتلقَّى سكرتيرته رسالة إلكترونية من صديقة لم تكن تحدَّثت معها منذ وقت طويل؛ أرادت الصديقة أن تعرف هل نحن على دراية بأنَّ أورسولا إيغورانا[1]، وهي من أشهر شخصياته، قد توفِّيت أيضًا في خميس العهد. وأدرجت في رسالتها فقرة الموت من الرواية، وعند قراءتها، تكتشف سكرتيرة أبي أنَّه بعد وفاة أورسولا، اصطدمت طيور مشتَّتة بالجدران ووقعت ميِّتة على الأرض. تقرأها بصوت مرتفع، وقد بدا جليًّا أنَّها تفكِّر في الطائر الذي مات في وقت أسبق من اليوم. تنظر إليَّ، متوسِّمة فيَّ على الأرجح حماقة تجعلني أغامر بإبداء رأي في هذه المصادفة. في حين أنَّ كلَّ ما أعرفه هو أنَّني لا أطيق صبرًا على انتظار أن أحكيها.

(1) Úrsula Iguarán من أشهر شخصيات مئة عام من العزلة وأطولهم عمرًا.

23

تصل أسرتي إلى البيت، وبعد التقائي بهم في محبَّة وبهجة، ينصبُّ تركيز ابنتيَّ على جدَّتهما. فقد كان الأحفاد الخمسة دائمًا شديدي الحرص على حمايتها. تبدو بخير، وتتكلَّم، وتسألهما كدأبها عن حياتهما. تتعامل البنتان مع الأمر ببساطة، فهما تألفان منها ردود الأفعال غير المعتادة. تريان جدَّتهما فريدة الطبع، فهي غريبة الأطوار ورزينة، رسميَّة وعنيفة، تختبر دائمًا أقصى حدود الصوابية السياسية. وهما معجبتان بها، وهي قادرة دائمًا على إضحاكهما، وذلك ما كان له نصيب كبير في حبِّهما لها.

يستأذن الصديق القادم من كولومبيا أمِّي في رؤية أبي، وتوافق. أعرض ذلك الأمر على بناتي. ترفض واحدة. والأخرى تقبل وتنظر إلى جدِّها من بعيد دون أن تعلِّق بالكثير، لكن تعبير وجهها يفضح فضولًا يغالب الحزن.

في هذا الوقت يعرض الخبر في التليفزيون، وتذاع سير أبي، القصيرة منها والطويلة، القديمة والمجمَّعة على عجل، في العديد من القنوات. تتنقَّل أمِّي بينها، مستغرقة تمامًا، ولكن دونما تعليق. نتحلَّق حولها ونستعرض حياة ومنجزات لرجل يرقد الآن ميِّتًا على بعد غرفة.

24

على الباب رجلان من دار الموتى. شاحنتهما الصغيرة مركونة في المرأب وقد أُغلق الباب خلفها. يحتشد كلُّ الذين يعملون في البيت بسرعة ليقولوا كلمات الوداع الأخير. تقترب الطاهية وتمسح وجه أبي هامسة في أذنه «رحلة سعيدة يا دون غابرييل». ليست طويلة القامة، فتمدّ ذراعها كي تبلغ جبهته. أخيرا تقبِّل أنفه، ثمَّ ظاهر يده. يهمس أخي في أذن أبي بما لا أستطيع سماعه. لحظة شديدة الحميمية حتى أنَّها لا تكاد تحتمل. أتراجع مغادرًا الغرفة. يقف الآخرون حول السرير أو أمام الغرفة في صمت، ناظرين إليه. لا تقترب أمِّي مرَّة أخرى.

ينقل الرجلان أبي إلى كيس الجثث بسلاسة مدهشة، وسط الزهور وكلِّ شيء، ثم يعقدان رباطًا على الكيس عقدًا متينًا في نقَّالة. حمْلُ النقالة والخروج بها من الغرفة، ثمَّ عبور غرفة أخرى، فنزول الدرج، مشهد يبهر الأنفاس. في جميع الأحداث المحتملة التي استشرفها خيالي على مدار الأيَّام القليلة الماضية، لم تُستشرف تلك اللحظة قطّ. يتحرَّك الرجلان في تمرُّس، دون أن يكشف شيء في سلوكهما فرط الألفة، ناهيكم عن السأم، من مهمَّة قاما بمثلها مرَّات لا حصر لها ولا عدد، مع أناس من جميع الأعمار وفي جميع الظروف. تضفي طريقتهما في العمل كرامة على المهمَّة التي يقومان بها. وذلك ما يفعله حتَّى الأغراب دائمًا وفي كلِّ مكان مع الذين ماتوا: يعتنون بأجسامهم في جدِّيَّة. وفيما هو محمول نزولًا على الدرج في بطء، تنبغي إمالة النقَّالة حتى لتوشك أن تكون رأسيَّة مراعاة لانحناء الدرج عند البسطة.

للحظة أتخيَّل أبي منتصب القامة، كأنّه في وضع الانتباه، غير مرئيٍّ وغير راء في العتمة. كلُّنا واقفون عند أعلى الدرج أو عند أدناه نشاهد في صمت. أمِّي فقط الجالسة، ناظرة، غامضة. خلافًا للحظة الموت من قبل، أو حرق الجثمان من بعد عند المساء، تخلو مشاعر هذه اللحظة من الغموض. مجرَّدة إلا من الحقيقة: إنَّه يغادر البيت، ولن يعود أبدًا.

فيما توضع النقَّالة داخل شاحنة دار الموتى، أنتقل وأخي وأبناؤنا إلى شبَّاك مطلٍّ على الشارع. هناك قرابة مئتي شخص أمام البيت، معجبون (كان أبي ليفضِّل وصفهم بالقرَّاء) وصحفيُّون وشرطة. يراقب الجيران من الشبابيك ومن أعلى الأسطح. يفتح باب المرأب، وتمضي الشاحنة ببطء وحذر عبر الزحام بينما يصيح رجال الشرطة بأوامر لا يلقى أغلبها غير التجاهل. تشاهد ابنتاي في دهشة. في بعض الأحيان تكون شهرة جدِّهما شيئًا ملموسًا، وفي البعض الآخر مجرَّدًا وبعيدًا عن عالمهما في كاليفورنيا. دخلتا معه ذات مرَّة وهما صغيرتان مطعمًا في مكسيكو سيتي، فإذا بالمكان يضجُّ بالتصفيق. كان الاستماع إلى حكيهما لذلك فاتنًا. خلال زيارات أبويَّ للوس أنجلوس، كنت كثيرًا ما أصطحبهما إلى بعض المطاعم الرائجة لتناول الغداء، حيث كانا يأكلان، محاطين بأثرياء المنطقة ومشاهيرها، ومجهولين. في العادة كان العمال اللاتينيون في مواقف السيَّارات هم الذين يتعرَّفون على أبي، وفي بضع مرَّات كانوا يبعثون منهم من يشتري كتبا ليوقِّعها لهم بعد تناوله الطعام. وما كان لشيء أن يبهجه أكثر من ذلك.

25

عندما نصل إلى دار الجنائز في مطلع المساء، نرى المئات قد تجمَّعوا أمامها، ففاض جمعهم على الطريق. منذ وصول جثمان أبي إلى هنا، وثمَّة توقُّع بأنَّ تقام مراسم وتكون مفتوحة للجمهور، أو للأصدقاء على الأقلّ. يتحتَّم تحويل مسار المرور، وتقتطع الشرطة طريقًا لتصل من خلاله سيَّارتنا إلى مرأب السيَّارات. وفي ما بعد أسمع من أصدقاء أنَّهم كانوا حاضرين هناك.

يلتقي بنا مدير الجنائز ومدير عام دار الجنائز بالطريقة الرسميَّة الرزينة الدمثة التي تتميَّز بها المهنة، والأصيلة أيضًا في الشعب المكسيكيّ. ننتظر في منطقة مرتجلة للجلوس في أحد أطراف مرأب تحت الأرض، قرب باب مفض إلى المحرقة. معي زوجتي، واثنان من أصدقاء العائلة، ومساعدة لأبي كانت شديدة التعلُّق به (وبعض زملائها في العمل كانوا يخمِّنون أنَّها مغرمة به). بعد ساعات عديدة من الأحاديث ومتابعة الأخبار، وما لا يحصى أو يعدُّ من الاتصالات والرسائل الإلكترونية، وكثير من التواصل مع الأصدقاء الذين وصلوا إلى البيت في الساعات الأخيرة، يبدو بالفعل وكأنَّ أيَّامًا مضت منذ أن مات أبي. أشعر بالخدر. يجرِّب عقلي مسارات عديدة مختلفة – الحزن والذكريات والمنطق – فإذا بها جميعًا في النهاية طرق ضحلة مسدودة. أقصى ما يمكنني الوصول إليه هو حس دعابة مضطرب.

يقال لنا إن بعض الوقت لم يزل باقيًا قبل أن يكون أبي جاهزا للحرق. أوامر أمِّي واضحة: أتمُّوا الأمر الليلة، بأسرع ما يمكن. لذلك ننتظر.

أتلقَّى مكالمة من صديق ممثِّل في لوس أنجلوس. أجد الحديث معه استراحة مرغوبة، ولكنَّها تشعرني أيضًا أن حياتي في كاليفورنيا بعيدة بُعدَ عالم آخر. محض الاضطرار إلى الانتقال من لغة إلى لغة، والذي أفعله في الظروف الطبيعيَّة دونما جهد، يبدو هذه المرة عملا يؤدَّى، شأن تمثيل دور مكتوب كتابة رديئة أو محاولة خداع ضابط حدوديّ.

على حين غرَّة، تبدو حياتي المزدوجة فصامًا. يقال إنَّه ما من بلدين متجاورين يختلفان أكثر من الولايات المتحدة والمكسيك، برغم الحضور المكسيكيِّ في الولايات المتحدة. الأمر أكبر من لغة وثقافة، إنَّه حالة ذهنية ورؤية للعالم، ومواطن حسد في كلا الجانبين، ولكنَّه في مثل اختلاف وَجْهيْ عملة. صرت مزدوج الثقافة إلى أكبر قدر يمكنني أن أتخيَّل إنسانًا عليه، ولكن في هذا اليوم، الذي يتعلَّق فيه كل شيء بعالم أبي، تبدو الازدواجية مرهقة.

لم أدرك إلى أن تجاوزت الأربعين أنَّ قراري بالعيش والعمل في لوس أنجلوس وفي الإنجليزيَّة كان خيارا عمديًّا، وإن يكن غير واع، بأن أشقَّ طريقي الخاصَّ بعيدًا عن مجال نفوذ أبي ونجاحه. استغرقت عشرين عاما لكي أرى ما كان واضحًا للمحيطين بي: أنَّني اخترت العمل في بلد لا يجيد أبي لغته المنطوقة (وقد كان طلقًا في الفرنسيَّة والإيطاليَّة لكنَّ طلاقته في الإنجليزية لم تكن تكفيه إلا لقراءة الأخبار)، ولم يقض فيه إلا قليلًا من الوقت، ولم يكن له فيه غير القليل من الأصدقاء، ولسنين لم تكن لديه تأشيرة تسمح له بدخوله. اخترت أيضًا الكتابة للسينما والإخراج، وذلك كان حلم حياته قبل أن يقوده فشل مساعيه في بيع قصصه الغريبة إلى تحويلها إلى بعض أنجح الروايات في القرن الذي عاش فيه. بدأت على استحياء، بالعمل في وظيفة مصوِّر سينمائي لم تفشل فشلا تامًّا لكنها في النهاية انهارت تحت وطأة

طموحات أخرى. وحينما كنت أوشك على الشروع في تجهيزات ما قبل إنتاج فيلمي الأوَّل، سألني أبي إن كان يمكن أن يقرأ السيناريو. تبيَّن لي أنَّه قلق عليَّ، خائف كدأبه من أنَّ كلَّ ما أفعله أنا أو أخي سوف يقاس على إنجازاته هو. ومن حسن الحظِّ، حظِّه وحظِّي، أنَّ السيناريو أعجبه. أحبَّ أفلامي المكتملة وكان يعرضها دونما خجل على أصدقائه أو على كلِّ من يمكن استدراجه إلى العرض.

في سنواته الأخيرة اقترح أبي أن نكتب سيناريو معًا، لأخرجه أنا. لقد أراد دائمًا أن يكتب للسينما عن امرأة في منتصف العمر ناجحة في عملها وترتاب في أنَّ زوجها على علاقة، وسرعان ما تكتشف أنَّ لزوجها فعلا حبيبة، ولكنَّها امرأة شديدة الشبه بها شخصيًّا، بعادات وذائقة مماثلة، وتعيش في شقَّة شديدة الشبه بشقَّتهم. بل إنَّه فكَّر فعليًّا في أن تلعب ممثِّلة واحدة الدورين. ولكن لمَّا جلسنا للكتابة، كانت ذاكرته المتدهورة سببًا في حوارات محبطة. كانت تلك الجلسات تؤلمني، فصرت أعمد إمَّا إلى تأجيلها أو اختصارها، على أمل أن ينسى. ومرَّت فترة إلى أن نسي في نهاية المطاف، ولعلَّه تصوَّر في بعض الأحيان أنَّني ببساطة غير مهتم. وإلى يومنا هذا، لم تزل تلك الواقعة باعثًا للحزن.

26

في النهاية، يطلب منا الدخول إلى مستودع الجثث. عن اليمين المحرقة، وإلى اليسار غرفة التحضير التي يقال لي إنَّ بوسعي أن أقضي فيها لحظات قليلة مع أبي. في تلك الغرفة تلتقينا امرأة شابة جذابة ترتدي زيا طبيًّا. تصافحني وتقدِّم لي عزاءها وتضيف أنَّها، وإن لم يطلب منها أحدٌ هذا، قد عملت على أبي قليلًا، وترجو أن يكون ذلك مقبولًا. استعملت معه القليل من مساحيق التجميل، وصفَّفت شعره، وحفَّت شاربه وهذَّبت قليلا الحاجبين الأشعثين اللذين كم سوَّتهما أمي بإبهامها، مرَّات لا حصر لها على مدار السنين. تهيئة الموتى للفرجة بهذه الطريقة كانت مسألة مزعجة لأبي، شأن كلِّ ما يتعلق بالممارسات الجنائزية. (لم يحضر جنازة قطُّ. وكان دأبه أن يقول «لا أحبُّ أن أدفن أصدقائي») لكنَّه الآن يبدو أصغر من عمره بعشر سنين، محض رجل نائم، ويدهشني كمُّ السعادة التي أشعر بها إذ يتسنَّى لي أن أراه على هذا النحو للمرَّة الأخيرة، حتَّى لو أنَّ ذلك بمساعدة التجميل. حتَّى ملاءة السرير أَحْكَمُ التفافًا عليه من ذي قبل، وأعرف أنَّ رهاب الاختناق كان ليجعل أمرًا كهذا غير محتمل في حياته. هذه هي المرَّة الأولى التي يخطر لي فيها أنَّه تجاوز كلَّ شيء. (ظلَّ في إحدى المرَّات يلقي الشعر صامتًا مغمض العينين طوال خمس وأربعين دقيقة ليحتمل رهاب الاختناق خلال إجرائه فحصا مقطعيًّا بالانبعاث البوزيتروني استمرّ لوقت طويل).

ألتفت إثر صوت ستارة تُسدل، فأدرك أنَّني تُركت وحدي في الغرفة. أتلفَّت حولي. باستثناء النقَّالة التي يرقد عليها أبي وطاولة خاوية أخرى،

ما من أثاث أو معدَّات في الغرفة النظيفة تمام النظافة، الخاوية من أيِّ رائحة غريبة عليّ. ليس بوسعي أن أحدِّد أأنا في عجلة من أمري أم لست كذلك. لكلا الخيارين جاذبيَّته. أمسُّ خده فإذا به بارد، لكن الإحساس غير مزعج. في حالة الارتياح والهدوء البادية عليه، لا تكشف قسماته دلائل فقدان الذاكرة. بوسعي مرَّة أخرى أن أقرأ على هذا الوجه صفاءه، وفضوله اللانهائي، وقدراته المعجزة على التركيز التي أحسده عليها أكثر ممَّا عداها. كان يعمل في أغلب الأيَّام من التاسعة صباحًا وحتى الثانية والنصف ظهرًا في ما لا يمكنني وصفه إلا بالنشوة. حين كنت وأخي صغيرين، كانت أمِّي تبعثنا في بعض الأحيان برسالة إلى مكتبه، فيتوقَّف عن الكتابة ويلتفت إلينا ونحن نبلغه بها. كان ينظر مباشرة إلينا فتخترقنا نظرته، وجفناه مرتخيان، وسيجارة في يده وأخرى مشتعلة في المطفأة، ثمَّ لا يردُّ بشيء. ولمَّا كبرت قليلا، كنت أضيف في بعض الأحيان قولي «أنت لا تعرف مطلقًا ما الذي قلته لك حالًا، صح؟» وأيضًا لا أحصل منه على ردّ. وحتَّى بعد ذهابنا عنه، كان يبقى على ذلك الوضع، ملتفتًا إلى الباب، ضائعًا في متاهة الحكاية. بتُّ أومن أنَّه مع ذلك المستوى من التركيز لا يكاد يوجد ما لا يمكن أن يحقِّقه المرء. أخي، الذي يعمل بذهن أحادي حادٍّ في فنِّه وتصميماته، ورث بعض هذا.

برغم هذا، في تمام الثانية والنصف، يكون أبي جالسًا معنا إلى الغداء، كامل الحضور. وكان غالبًا يبدأ بأن يعلن لنا أنَّه يكتب أفضل رواية منذ عهد الروايات الروسية العظيمة في القرن التاسع عشر، ثم ينتقل إلى أيِّ موضوع أو إلى كلِّ موضوع، وفي الغالب يسائلنا عن يومنا. وبعد قيلولة الظهيرة كان حماسه يبدأ في الخفوت. وبحلول وقت العشاء يقول إنَّ عمل يومه التالي صعب، وإنَّه يحتوي على بضع عقبات غير هيِّنة، وإنَّ إزالتها مسألة حاسمة

لنجاح الكتاب إبداعيًّا. وعلى الإفطار في اليوم التالي يكون صريحًا إزاء المستوى الجديد من قلقه: «لو لم يمرّ اليوم جيِّدا، فالرواية كلُّها سوف تفشل. وفي هذه الحالة سوف أتخلَّى عنها». ولاحقًا، على الغداء، تتجدَّد الدورة مرَّة أخرى.

يبهتني فجأة أنَّه لا يتنفَّس، وهذا مذهل. ثم أخشى أنَّه قد يتنفَّس وأنَّ تنفُّس رجل ميِّت أمر مريع، فأرقبه عن كثب لثواني قليلة طويلة إلى أن أدرك أنَّني أحبس أنفاسي، فأشهق بسرعة وأشعر بسخفي. شاربه هو شاربه، بقدر أنفه وعينيه وشفتيه. هو شاربه الأوَّل والوحيد الذي أطلقه وهو في السابعة عشرة ولم يحلقه بعدها قطُّ. فقده خلال العلاج الكيميائي في أوائل السبعينيَّات من عمره، لكنَّه عاد فنما من جديد، نموَّ ذيل عظاءة. أحاول أن أقيم في عقلي جسورًا بين أبي الحيِّ وأبي الميِّت وأبي الشهير وهذا الأب الماثل هنا أمامي، وأعجز. عندي بالغريزة ما أقوله، وأفكِّر فيه، «أحسنت». لكنَّني لا أجهر به خشية أن أبدو جادًّا أو عاطفيًّا. أودُّ أن ألتقط له صورة وأفعل ذلك بهاتفي. وسرعان ما أشعر بالذنب والخجل إلى درجة الغثيان من انتهاكي خصوصيَّته بذلك العنف. أحذف الصورة وألتقط بدلا منها صورة للورد الموضوع على جسده. كان ليفرح أن الشابَّة الجميلة جمَّلته. كان ليغازلها.

27

أغلق الستارة وأقول إنَّ علينا أن نمضي قدمًا. يدفعه أحد المساعدين من غرفة إلى الغرفة المجاورة، مسافة لا تتجاوز عشرين خطوة. أتذكَّر لوهلة المسافة القصيرة التي يقطعها المحكوم عليهم بالإعدام من زنزانتهم حينما يحين وقت التنفيذ فيدركون أنَّ غرفة الإعدام كانت قائمة طيلة الوقت من وراء الجدار. الغرفة أكبر من الغرفة السابقة لكنَّها أيضًا تامَّة النظافة. مساعدة أبي وصديقاه هناك، أمَّا زوجتي فرجعت إلى منطقة الجلوس بالخارج. أسارع فأخرج وأشير إليها نافد الصبر، ولا أعرف أهذا لأنَّني بحاجة إلى الدعم أم لأنَّني أرفض القبول بأساليبها في الاختفاء. من يدري بحقِّ الجحيم؟ أريدها معي بالداخل وهذا هو الأمر ولا مزيد، ولا يراعي الذكر العظيم بداخلي أنَّها قد لا ترغب في شهود حرق حميها.

يوقف العامل النقَّالة موازية لأبواب حجرة الحرق المغلقة، ولوهلة لا يحدث شيء. ليس مسموعًا غير صوت خفيض مكتوم صادر عن الشعلات من داخل الآلة المهذبة المنزَّهة عن النقص المنتظرة دورها للقيام بالعمل الشره. ثمَّ يشير شخص ما إليَّ، أو يقول لي قولًا (لم أعد أستطيع أن أتذكَّر) فأفهم أنَّ شيئًا لن يحدث ما لم أوجِّه بذلك. أشير إلى مدير الجنائز بأنَّنا مستعدُّون، فيفتح عامل أبواب حجرة الحرق، وينقل أبي ببطء إلى الداخل على سيرٍ ناقل قصير. تقول مساعدة أبي «الوداع يا ريِّس». ويصفِّق عمال دار الجنائز. لم يزل الورد الأصفر يعلوه، وأتذكَّر ما خطر لي بشأن ذلك الورد وكيف أنَّه سيبيد عمَّا قليل. ينتقل الجسد حتَّى لا يبقى ظاهرًا منه غير الكتفين والرأس، ثمَّ يقع

خلل ما ويعلق الجسد. يمضي أحد موظَّفي دار الجنائز بسرعة واقتدار، وكأنَّ هذا الأمر غير استثنائي، فيدفع الكتفين بحزم إلى أن يعاود الجسد الحركة ويبتلع في النهاية. ومن ورائه تغلق الأبواب.

مشهد دخول أبي حجرة الحرق مذهل يبعث الخدر. يبدو في آن واحد، وعلى نحو مستحيل، ممتلئًا وخاويًا. الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أشعر به يقينًا في اللحظة نفسها هو أنَّه ليس حاضرًا على الإطلاق. ستبقى أنفذ صورة في حياتي.

القسم الرابع

انطلق محلِّقًا في الجلبة المدلهمة، جلبة آخر أوراق خريفه الصقيعية، باتّجاه مملكة ظلام حقيقة النسيان، متشبّثا بخوفه من عباءة الموت الكاسية، غريبًا عن هتافات الحشود المهتاجة التي هرعت إلى الشوارع منشدة ...

خريف البطريرك[1]

(1) مشهد النهاية، نقلا عن ترجمة الشاعر محمد علي اليوسفي الصادرة عن دار المدى، الطبعة الثالثة 2008، بتصرف اقتضاه الالتزام بالترجمة الإنجليزية المعتمدة في هذا الكتاب.

28

في اليوم التالي، أي الجمعة، يذكِّرنا زلزال صباحيٌّ أنَّ العالم مستمرّ. ولا يضيف الزلزال إلى زوَّارنا القادمين من أماكن لا تعرف الزلازل إلا مزيدًا من الجنون على سفرتهم. بعد قليل، تتلقَّى أمِّي اتصالًا يخطرها بأن بيلا آرتس - وهو المعهد الوطنيُّ للفنون الجميلة - يودُّ أن يقيم عزاء لأبي، ويكون مفتوحًا للجمهور، بحضور رئيسي المكسيك وكولومبيا. يسعدنا ذلك، لكن لا مجال لإنكار أنَّ الانتظار لقرابة أربعة أيَّام قبل البدء في طيِّ الصفحة سيكون أمرًا صعبًا.

يستمرُّ الأصدقاء في الوصول من قريب ومن بعيد. يتحوَّل البيت إلى حفلة كوكتيل، إلى سهرة على جثمان ميِّت مع إضافة شراب وأطعمة خفيفة على مدار الساعة، وأمِّي في المركز من كلِّ ذلك، تجامل، وتسأل، وتصدر الأحكام، ولا تكلُّ ولا تملُّ. بل إنَّ هناك أشخاصًا سمعت عنهم ولم أقابلهم قطُّ، أصدقاء تعرَّف بهم أبواي خلال السنوات القليلة الأخيرة، بعدما انتقلت إلى لوس أنجلوس. تعكس مجموعة الحاضرين اهتماماتهما: ففيها كلُّ الأعمار، والمهن، والشرائح الاجتماعية. تستقبل أمِّي الضيف العابر، وحده على انفراد، ومن هؤلاء رئيسان سابقان. وعلى الرغم من حزنها، وما ينبغي أن يفترضه المرء فيها من إرهاق، فهي ودود صبور. ومن الزوَّار واحد أو اثنان تقسو عليهما في الحكم بعد ذهابهما، بشيء قليل من المرارة والسخرية القاطعة. لا تسامح أحدًا توقِّف عن الاتصال بعد فقدان أبي ملكاته، حتى لو للاكتفاء بإلقاء التحيَّة عليها. وقائمة العار هذه قصيرة، فلو أنَّ اسمك مدرج

فيها، فأمنياتي لك بحظٍّ سعيد.

في موقف آخر، يقال لأخي إنَّ رئيس جامعة كبيرة بالباب. وحينما يفتح الباب، يتقدَّم الرجل، ويلقي تأبينًا محكم البناء إن لم يكن ثقيلًا، أشبه بخطبة انتخابيَّة سياسيَّة، ويعانق أخي عناقًا رسميًّا، ودونما كلمة أخرى يغادر إلى الأبد.

يصل أحد أخوة أبي ومعه زوجته، وابنة عمومة أخرى من ذلك الجانب من العائلة لم أكن رأيتها منذ قرابة عشرين سنة. نشأت في قرطاجنة، وتعيش الآن في بلدة صغيرة بولاية مين الأمريكيَّة، متزوِّجة بأحد أبناء هذه البلدة، وتجد طرافة عظيمة، لا يجدها غيرها، في القصص التي ترويها عن تكييف الثقافة المحلية معها، وليس العكس. تثير هذه القصص ذكريات ولع عائلة أبي بالملحة والمبالغة والتجميل. استولِ على مستمعيك ولا تدع لهم مهربًا. القصَّة الجيِّدة دائمًا تغلب القصَّة الحقيقيَّة. القصَّة الجيِّدة هي الحقيقة.

في ظهيرة أحد الأيَّام تتصل بي سكرتيرته. تنقل إليَّ قلقها من أنَّ جميع من في شركة تأجير معدَّات المستشفى يعلمون أنَّ أبي رحل وهو على ذلك السرير. وإنَّ السرير قد ينتهي في أيِّ مكان، فيباع أو يقتنى بوصفه تذكارا مَرَضيًّا. نقرِّر شراء السرير. وفي الوقت الراهن يجري تفكيكه وتخزينه في مرأب خلفيٍّ بعيدًا عن الأنظار إلى أن نقرِّر ماذا نحن فاعلون به. لا نقول شيئًا لأمِّي التي ما كانت لترغب في بقائه في البيت. كانت لتقول إنَّ بقاءه هناك لن يكون إلا انتظارًا لدورها.

يأتي أخي من دار الجنائز بجرَّة فيها رماد أبينا. كان اختيار الجرَّة المناسبة مأزقا. أرادت أمِّي شيئًا لا غاليًا ولا رخيصًا، أنيقًا لكن في اتزان. ويبدو أنَّ الجرَّة قوبلت بالرضا عندما رأتها، برغم أنَّها لم تنظر إليها إلا لثانية أو اثنتين. تصدر تعليماتها بوضعها في مكتب أبي إلى أن يقام العزاء وتأتي بوشاح

حريريٍّ أصفر لتلفَّ فيه. ثم يخطر لي، فلا يمكن أن توعز تلك الخاطرة إلا إلى إنهاكي، أن تؤخذ صور لابنتي وأبناء أخي مع الجرَّة. يبهتون لكنَّهم أيضًا يجدون الاقتراح هستيريا، فيمتلئون له، مذعورين كاتمين ضحكهم. وما الذي يمكنك أن تفعله عدا الضحك إذ تتصوَّر جدَّك وقد تقلَّص إلى ثلاثة أرطال من الرماد؟

تدوم الحفلة طوال ثلاثة أيَّام كاملة، منقذةً للحياة، وإن تكن مرهقة. في يوم الاثنين، يوم العزاء، أجلس وحيدًا إلى مائدة الإفطار. أرفع عيني عن الطبق لأكتشف قوس قزح صغيرًا تامًّا على ظهر مقعد أبي. مصدره نور الصباح وقد تكسَّر عبر الجدار الزجاجي الذي قتل الطائر قبل أيَّام قليلة. بحلول عصر الاثنين، تجتمع نواة المجموعة، وهي من بضع عشرات من الناس، في الحديقة لالتقاط صورة قبل المضيِّ بأسطول من السيَّارات الخاصَّة وسيَّارات الأجرة إلى معهد بيلا آرتس الوطنيِّ للفنون الجميلة. وفيما تتفرَّق المجموعة في الحديقة، تصيح أمِّي بأوامر السير: «غير مسموح لأحد بالبكاء».

في الطريق إلى معهد بيلا آرتس الوطنيِّ للفنون الجميلة، أسأل صديقًا لو أنَّ بوسعه أن يحمل الجرَّة ونحن نغادر السيَّارات في طريقنا إلى القصر. لا أريد أن تلتقط لي صورة وأنا أحملها، وما السبب في ذلك إلا أنَّه أمر أكثر خصوصية بالنسبة لي من أن أراه في الأخبار.

نجتمع حيث تتوقَّف السيَّارات، ونتبع مدير المعهد صاعدين الدرج مارِّين بالطرقات إلى أن نصل إلى باب نعبره فإذا بنا، على غير انتظار، في القاعة الرئيسيَّة. لا أعرف ما الذي كنت أنتظره ولكن ما ينتظرني مرعب. على أحد المستويات قاعدة ضخمة توضع عليها الجرَّة محاطة بورد أصفر. على الجانبين منطقتان كبيرتان فيهما صفوف من الكراسي للضيوف. لكن في مواجهة الجرَّة منصَّة عليها أكثر من مئة مصوِّر فوتوغرافيا وفيديو وصحفي.

نجلس في الصف الأوَّل من المنطقة الواقعة على اليسار، وسط الشخصيَّات البارزة والأصدقاء الذين وصلوا في وقت أسبق. واضح أنَّ المنتظر منَّا هو أن نقف حرسًا محيطين بالجرَّة لدقائق قليلة. أسير وأخي وأمِّي لنقف حيث يطلب منا. ويضفي وابل إضاءات عدسات التصوير سرياليَّة على اللحظة شديدة الغرابة. يستحيل ألا أفكِّر فيمن يعرفوننا من الناس وهم يشاهدوننا في شتَّى أرجاء العالم. ليس الواقف هناك هو أنا في الحقيقة، إنَّما هو رجل يرتدي سترة وربطة عنق، في موضع ما بين عمريْ الثالثة والثالثة والخمسين، يبذل أقصى الجهد كي لا يفلت الأنظار إلى نفسه. بعدنا، تقف أسرة أخي مثل وقفتنا، وأخيرًا زوجتي وابنتانا. تقول لي لاحقًا بنت من البنتين، تعاني القلق من التجمُّعات، إنَّ التجربة كانت أليمة لها للغاية، ربَّما إلى درجة لا تحتمل، أشفق عليها؛ انكشافها بتلك الدرجة في أكثر اللحظات خصوصيَّة، في ظروف حزينة، ووسط آلام المراهقة، لا بدَّ أن يكون عذابًا.

على مدار الساعتين التاليتين نجلس ونشاهد آلاف الناس، الذين كان أكثرهم قد وقف بالخارج لساعات تحت الرذاذ، وهم يدخلون ليقدِّموا احترامهم. كثيرون يضعون الزهور، والتذكارات، والصور الدينيَّة، والحليَّ، على قاعدة المنصَّة التي تستقرُّ عليها الجرَّة. كثيرون أيضًا يضعون كتب أبي، أو رسائل عزاء أو حبٍّ، منها ما هو موجَّه إلى المايسترو، لكن الأغلب والأبعد عن الرسمية موجَّه إلى غابو أو غابيتو. وفي ذلك تذكرة أكيدة بأنَّه ينتمي أيضًا انتماءً كبيرًا إلى بشر آخرين.

تسنح في هذه الفعالية فرصة رؤية جماعة جديدة كاملة من الأصدقاء الذين لم يسبق أن رأيناهم، أو لم نرهم منذ زمن بعيد. بل إنَّ عيني تقع على قلَّة يمرُّون سائرين وسط المعزِّين. أشير إليهم كي يقابلوني في الجانب الآخر من القاعة الرئيسيَّة، ونتلاقى سريعًا. وبفضل هذه اللقاءات، يتبيَّن أنَّ الفعالية

ليست حدثًا خاليًا تمام الخلوّ من المتعة.

في لحظة ما، وأنا جالس مستغرقًا أفكاري، أنظر بمزيد من التمعُّن في وجوه المعزِّين العابرين. أجدني أتذكَّر أنَّ أبي درج على قوله إنَّ لكل إنسان ثلاث حيوات: العامَّة، والخاصَّة، والسريَّة. يخطر لي لثانية أنَّ شخصًا ما من حياته السريَّة قد يكون بين هؤلاء الناس. وقبل أن أستغرق في التفكير في هذا الأمر أكثر مما ينبغي، يصل فريق ثلاثي فالياتو كان أعضاؤه واقفين في الصف، فيقفون، ويؤدّون أغنية لأبي، حالة احتفائيَّة، تلقى الترحيب.

نسمع أنَّ طائرة الرئيس الكولومبيِّ هبطت وأنَّه بالفعل في طريقه إلى الفعالية. وسرعان ما يدخل من وراء مضيفه رئيس المكسيك. المفاجأة السعيدة أنَّ كثيرًا من أصدقاء أبويّ يصلون على متن هذه الطائرة، فترفع هذه الموجة الجديدة من روحنا المعنوية مرَّة أخرى. تستقبلهم أمِّي بترحاب وفرحة كبيرين، وببهجة لا خجل فيها، وتسألهم «ما رأيكم في هذا؟»

يُعزف السلام الوطني لكلا البلدين، ويغيِّر هذا من المزاج السائد. الرئيس الكولومبيُّ، الذي يماثلني في السنِّ، شخص يعرفه أبي منذ سنين، وكانا صديقين لفترة طويلة قبل أن يتولَّى الرئاسة. لا يزخرف الكلمات. يقول إنَّ غابو ببساطة هو أعظم كولومبيٍّ على الإطلاق. تنظر إليه أمِّي في اعتزاز، كأنَّه ابن أخت متفوِّق. أخوه حاضر أيضًا، وهو صحفيّ، ومن المحبَّبين لدى أمِّي، ويمدُّها بأحدث نمائم بوغوتا. وبأخذ كلِّ شيء في الاعتبار، تبدو عليها السعادة.

قرب نهاية خطبة الرئيس المكسيكيِّ، التي تُعدُّ جيدة لولا إشارته إلينا بقوله «الابنين والأرملة». أتململ في مقعدي، موقنًا أنَّ أمِّي لن تقبل. حينما يذهب الرئيسان، يأتي أخي إليَّ ويقول جادَّ الوجه هازل النبرة «الأرملة». نضحك في توتُّر. وفي وقت لاحق تعبِّر أمِّي عن رأيها دونما مواربة أو مواراة

لغضب. وتهدِّد بأن تقول لأوَّل صحفيٍّ يمرُّ بها إنَّها تخطِّط للزواج بأسرع ما تستطيع. وآخر كلمات تقولها في الموضوع هي «أنا لست أرملة. إنَّما أنا أنا».

كنت وأخي قد عاهدنا نفسينا بأن نبقى، ما بقي في الصفِّ من يقفون خارج معهد بيلا آرتس الوطنيِّ للفنون الجميلة لتقديم احترامهم لأبينا، مهما تأخَّر الوقت، بعد ذهاب الرئيسين والصحافة والأصدقاء والأسرة. لكن بعد انتهاء الفعالية الرسميَّة بلحظات، يبدو واضحًا أنَّ نوايانا الطيبة لا تكفي لإنقاذنا من حافَّة الانهيار. لذلك، محبطيْن من فشلنا، وراجيين أن نسامح نفسينا، نغادر.

29

أرجع إلى لوس أنجلوس ليومين. حتى زمن قريب للغاية، وبرغم أنَّه كان غير واع بشخصيَّتي، كان أبي يشعر بالإحباط كلَّما ودَّعته ويقول «لا يا رجل، لماذا تذهب؟ ابق، لا تتركني». كان أمرًا مخيِّبا له على الدوام، غير بعيد الشبه من ترك طفل باك في الحضانة، لكن دون اليقين، سواء أهو في محلِّه أم غير ذلك، بأنَّ الأمر كلَّه فيه الخير له.

في البيت ثمَّة بالفعل مئات رسائل التعزية بانتظاري. في هذا الواقع الآخر تبدو كما لو أنَّها تشير إلى حدث وقع في مكان بعيد وزمان قديم. أرجئها لوقت لاحق، قد أجدها فيه (وهو ما يحدث فعلًا في نهاية المطاف) مغذية. في مكالمة مع أمِّي، تقول لي إنَّ رجلا جاء إلى البيت، معلنا أنَّه السيِّد بوروا. تحسب أنَّه شخص من عائلة بوروا التي تمتلك إحدى أقدم دور النشر في المكسيك. تستقبله في غرفة المعيشة وهي لم تتعرف عليه، لكنه ودود وبسيط، يسأل عن سكرتيرة أبي، وأخي، وعنِّي، يسأل عن الجميع بأسمائهم، ويحكي ذكرياته مع أبي. حينما تدخل السكرتيرة، يثب على قدميه ويعانقها في بساطة. تجد حرجًا كبيرا ولكنَّها تقرُّ بأنَّها لا تتذكُّره. يعاود السيد بوروا الجلوس وسرعان ما يوضِّح أنَّه جاء إلى المدينة بسيَّارة هي الآن معطَّلة. مصمِّمًا على التعبير عن مشاعره، يستعين بصديق له ليقلَّه وهو منتظر الآن بالخارج. وهل تتعطَّف أمِّي وتقرضه ما يعادل مئتي دولار أمريكي لإصلاح سيَّارته؟ تعطيه أمِّي المال، ويرحل الرجل، ولا يأتي خبر عنه بعد ذلك ابدًا. في ما بعد نكتشف أنَّه نصَّاب شهير. تضحك من قلبها على الواقعة.

باستثناء التعازي، يأتي البريد برسائل من أصدقاء يبعثون لي فيها الصفحات الأولى من جرائد العالم الصادرة في يوم وفاة أبي. يمضي بي ذلك عبر جحر أرنب الإنترنت فأرى أنَّ جميع الصفحات الأولى تقريبًا من كلِّ صحيفة قوميَّة أو إقليميَّة قد حملت النبأ في ذلك اليوم. أقرأ من النسخ قدر ما أستطيع، فأجد كلَّ صحيفة تبرز جوانب مختلفة من حياته أو منجزاته. مرَّة أخرى أحاول الجمع بين هذا الشخص المطبوع والشخص الذي قضيت معه الأسابيع القليلة الماضية، عليلًا، ومحتضرًا، ورفاتًا في جرَّة، ومع أبي في طفولتي، الذي أصبح في نهاية المطاف ابنًا لنا، أنا وأخي. أقرأ الملاحظات التي كتبتها على مدار الأيَّام القليلة الماضية، ممزَّق المشاعر لا أعرف إن كان يجب أن أجمعها كلَّها في سرديَّة من نوع ما. كان أبي، شأن أمِّي، راسخ الإيمان بأنَّ حياتنا المنزليَّة شأن خاصٌّ تمامًا. وفي طفولتنا كنَّا ملزمين بذلك المعيار مرارًا وتكرارًا. ولكنَّنا لم نعد طفلين. ربما نحن طفلاهما الكبيران، لكنَّنا لسنا صغيرين.

اشتكى أبي ذات مرَّة قائلًا إنَّ من الأمور التي يكرهها في الموت أنَّه سيكون الجانب الوحيد في حياته الذي لن يتمكَّن من الكتابة عنه. كلُّ شيء عاشه، وشهده، وفكَّر فيه، انتهى إلى كتبه، إمَّا مشفَّرا أو مدسوسًا في قصَّة. وكثيرًا ما كان يقول «لو أنَّ بوسعك أن تعيش دون كتابة، فلا تكتب». وأنا ممَّن ليس بوسعهم العيش دونما كتابة، لذلك أثق أنَّه كان ليسامحني. ومن أقواله التي سوف أصطحبها معي إلى القبر قوله «ما من شيء خير من كتابة جيِّدة». وهذه المقولة الأخيرة لا يفارقني وقعها، فأنا واع تمامًا بأنَّ أيَّ شيء أكتبه عن أيَّامه الأخيرة سوف يسهل نشره، بغضِّ النظر عن جودته. أشعر في أعماقي أنَّني سوف أكتب وسوف أعرض هذه الذكريات بطريقة أو بأخرى. وحينما أضطرُّ إلى ذلك، سوف ألوذ بقول آخر قاله لنا: «بعد أن أموت، افعلوا ما يحلو لكم».

30

أرجع إلى المكسيك لأقضي وقتًا مع أمّي وأرى أصدقاء من برشلونة لم يتيسَّر لهم السفر قبل ذلك. نحن على مقربة منهم منذ عام 1968، والآن وقد انتهت حفلة الكوكتيل، لم يبق غيرنا تقريبًا في البيت. أمر طيِّب أن نستمتع معهم في سلام وهدوء نسبَّيين، ولكن ذلك يزيد من غياب أبي وضوحًا. كلاهما طبيب نفسيّ، وكانا من أقرب الأصدقاء الذين يأمنهم أبي. لم يخضع قطُّ لعلاج نفسيٍّ، قائلا إنَّ آلته الكاتبة هي محلِّله النفسي. ولن نعرف قطُّ هل كان يخشى أن يقتطع العلاج النفسيُّ ولو نزرًا قليلًا من إبداعه أم كان لا يرتاح إلى التعرِّي الذي يصاحبه. ولكنَّه شجَّعنا في بعض الأحيان على الحديث إلى أصدقاء مقرَّبين أو إلى الأسرة عن مخاوفنا، وإلا فإنَّنا سننتهي إلى أن ندفع لمحترف كي ينصت إلينا.

رغبتي الأساسية خلال هذه الزيارة هي أن أتكلم مع أبي عن وفاته وما أعقبها. أمرُّ على مكتبه في الحديقة الخلفيَّة، حيث يحتفظ برفاته في خزانة وحيث الرجوع إلى الحياة الطبيعية، كما في بقيَّة المنزل، يدبُّ في بطء ولكن في ثبات. لم ترجع أمِّي إلى المكتب، ولن ترجع. الغرفة التي مات فيها أبي رجعت سيرتها الأولى. هي بالنسبة إلى ابنتيَّ وأبناء أخي غرفة تجتنب. أقرِّر أن أنام فيها في محاولة لإرجاعها إلى طبيعتها محض غرفة للضيوف. وثمَّة أقضي ليلة هادئة، بلا أحداث، لحسن الحظ أو لسوئه.

31

أستقلُّ طائرة في رحلة مبكِّرة إلى لوس أنجلوس. هي رحلتي الثامنة من مسكيكو سيتي أو إليها خلال ثلاثة أسابيع. فيما تتقدَّم الطائرة ببطء صوب المدرج، يغمرني فجأةً صفاء أستشعر معه أنَّ وقت أبي الرائع على الأرض قد انقضى. خلال الإقلاع يملؤني الحزن لكن الاقتران الغريب بين فراغ الفقد وهدير طاقة المحركات القوي يبدو مبهجًا على نحو غريب. مع تراجع آلات الهبوط ورفع كوابح الطائرة، يظهر بركانان ناحية الشرق، تضيئهما الشمس الطالعة من ورائهما: بوبوكاتبتل، الأقدم بمئات آلاف السنين من الكلمة المكتوبة، وإكستاسيهوتال طريح الأرض. مع وصولنا إلى ارتفاع عشرة آلاف قدم، يدقُّ جرس كأنَّه منبِّه ساعة رقيق. أُرْجِع مقعدي وأتلفت حولي. المرأة الجالسة بجواري تقرأ **مئة عام من العزلة** على هاتفها.

القسم الخامس

نظر القبطان إلى فيرمينا داثا ورأى في رموشها البريق الأول لصقيع شتوي. ثم نظر إلى فلورينتينو أريثا، وقوته التي لا تقهر، وحبه الجسور، وغمره ارتياب متأخر بأن الحياة، أكثر من الموت، هي التي لا حدود لها.

الحب في زمن الكوليرا[1]

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) من السطور الختامية للرواية، نقلا عن ترجمة صالح علماني، صفحة 306، دار المدى، الطبعة الأولى، 1991، بتصرف اقتضاه الالتزام بالترجمة الإنجليزية المعتمدة في هذا الكتاب.

32

ماتت أمُّنا في أغسطس من عام 2020. حدث الأمر تقريبًا على النحو الذي ظننَّا أنَّه قد يحدث به، في ضوء أنَّ قدرة رئتها بعد خمس وستين سنة من التدخين ظلَّت تتناقص فباتت في سنواتها الأخيرة تعيش على التنفُّس الصناعيِّ على مدار اليوم. غير أنَّ روحها المعنويَّة لم تضعف قطُّ. كانت تشاهد الأخبار على التليفزيون لساعات عديدة في اليوم فضلًا عن متابعتها أيضًا عبر الكمبيوتر اللوحيِّ والاتصال مع شبكة أصدقاء عالميَّة عبر هاتفين أرضيَّين وثلاثة هواتف محمولة مصفوفة أمامها. في أشهرها القليلة الأخيرة كنَّا نتواصل عبر الفيديو كلَّ يوم تقريبًا، وبرغم أنَّه لم يكن من حديث يجري إلا عن الأحداث العالميَّة، فقد بدت على طبيعتها القديمة، وإن بدا عليها شيء من الضجر بسبب الانعزال عن أصدقائها. حتَّى مع تدهور صحَّتها وتضاؤل قدرتها على الحركة، لم تبد شديدة القلق على حالها. لم أر في سلوكها صدوعًا كبيرة. أكان ذلك من الشجاعة، أم من الإنكار، أم من التظاهر؟ وتلك مجالات ثلاثة برعت فيها جميعًا في أوقات مختلفة.

كثيرًا ما كانت تسألني «متى تعتقد أنَّ هذا الوباء سوف ينتهي؟». نحن الآن في أواخر عام 2020، ولم أزل لا أمتلك إجابة لسؤالها. عاجزًا عن السفر، رأيتها حيَّة للمرَّة الأخيرة على شاشة هاتفي المشروخة، ومرَّة أخرى بعد خمس دقائق، كانت قد ذهبت إلى الأبد. اتصالان قصيران عبر الفيديو، يفصل بينهما الأبد، لم يزل عليّ أن أستردّ منهما قدرتي على الحكي. لكن ماذا عساي أحكي ويكون فيه أيُّ قدر من القوَّة؟ في الأيَّام التالية لوفاتها كنت

أتوقَّع منها كلَّ يوم أن تتصل لتسألني «كيف كان شكله، أعني موتي؟ لا، لا، على مهلك. اجلس، واحك لي بطريقة صحيحة». أتخيَّل أنَّها كانت لتنصت، مراوحة بين الضحك والأنفاس النهمة من السجائر التي قتلتها. كانت لتتكلَّم مع أصدقاء من العالم، وتتلقَّى تعازيهم في وهج من السرور والكبرياء، قبل أن تسائلهم باهتمام عظيم عن طلاق ابن أو سرقة شيء.

ضغط أبي عليها لسنين كي تقلع عن التدخين، وحاولت بضع مرَّات، على مضض تام، ولكنَّها فشلت. حتَّى في أولى أيامها مع التنفُّس الصناعيِّ كانت تطلب منِّي في بعض الأحيان أن أمسك القناع إلى أن تسحب بضع أنفاس من سيجارة. وتقول «لا تطفئ الآلة، سأرجع لها حالًا». تحذيرات أبي مما قد يكون عليه موت المدخِّن ستظلُّ مسيطرة إلى الأبد عليَّ أنا وأخي. وثبت أنَّ هذه التحذيرات نافعة للغاية، لأنَّنا (وربَّما يجدر أن أقول إنَّ أخي وحده لأنَّه الذي كان معها على الأرض) كنَّا في غاية الحرص لكي لا يكون موتها أليمًا أو حافلًا بالقلق. ولم يكن فيه من الأمرين شيء.

أغلب مسوَّدات أعمال أبي غير المكتملة أنقذتها أمِّي من وراء ظهر أبي، فقد كان حازمًا في رفض عرض الأعمال غير المكتملة أو الحفاظ عليها. في مرَّات كثيرة خلال طفولتنا دعيت أنا وأخي للجلوس على الأرض في مكتبه ومساعدته في تمزيق نسخ سابقة كاملة والتخلُّص منها، وإنَّني على يقين من تعاسة تلك الصورة للمقتنين ودارسي كتابته. ذهبت أوراقه ومكتبة مراجعه إلى مركز هاري رانسم في أوستن بولاية تكساس ووجدت أمِّي سعادة عظيمة في مراسم افتتاح تلك المجموعة. حضرت المراسم أسرة أخي وأسرتي، واستمتعت أمِّي برفقة أحفادها ووجدت فيها ملاذها. كانت الحفيدات يمنحنها سعادة خاصَّة في ما أفترض، فمع تقدُّم الولدين في العمر بقيت البنات أكثر اهتمامًا بشؤونها اليومية وتتبُّعًا لحالتها الصحيَّة عن كثب. وكانت تهدي إليهنَّ حقائبها وزينتها القديمة، وبسخاء بلغ في بعض الأحيان

أنَّ البنات كنَّ لا يرتحن لقبولها. لكنَّه ليس عدم ارتياح مغالى فيه. شعرت إحدى ابنتيَّ أنَّ أمِّي هي أشبه شخص بها في الدنيا ووجدت في ذلك مصدر فخر عظيم، ويمكن القول إنَّ ابنة أخي، بالمقارنة معنا جميعًا، كانت الأكثر حضورًا ماديًّا في سنواتها الأخيرة. كانت ابنتي الأخرى شديدة الحرص على التواصل معها من الخارج بوتيرة منتظمة وكانت شديدة العطف عليها. كانت جدَّة أمِّي شخصيَّة هائلة الحضور في حياتها، فهي أمٌّ حاكمة جليلة المقام مرهوبة الجانب، وفي ظنِّي أنَّ ذلك أسهم في ضعفها تجاه الحفيدات. أحبت ابني أخي، لكنَّها كانت تعتقد أنَّ الصبية ينزعون إلى الانسحاب إلى عوالمهم الخاصّة مع تقدمهم في العمر، وتقبَّلت ذلك. وهذه بالطبع لا تعدو أفكاري الخاصَّة ولو كانت سمعتها لهزئت بها ولأعرضت عنِّي في نفاد صبر.

بعد سنتين من وفاة أبي، أخذنا رفاته إلى قرطاجنة. وضع داخل قاعدة تمثال (عجيب الشبه به) في فناء بناء كولونياليٍّ مفتوح الآن للجمهور. أقيمت مراسم رسميَّة، سبقتها وأعقبتها حفلة كوكتيل البيت المفتوح الإلزاميَّة في بيت أبويَّ. وشأن الحفلة التي أقيمت على مدار الساعة عند وفاة أبي، استمرَّت هذه لأيَّام عديدة، ولكن نظرا لأنَّ المزاج كان أميل إلى المرح، فقد حرصت أمِّي على أن تكون الموسيقى حيَّة حتى آخر الليل. بدت لي الأيام عاطفيَّة إلى حدٍّ ما، وربَّما مرهقة بعض الشيء، ولكن الغريب أنَّني في ذلك الوقت لم أفكر في أنَّها مرهقة كثيرًا. بدا الأمر كلُّه محتملًا. في آخر يوم لي هناك، توقَّفت في وقت مبكِّر من الصباح في الفناء لإلقاء نظرة أخيرة على مستقرِّ الرفات الأخير. بدا مذهلًا الظنُّ بأنَّ الرفات سيكون هناك، بأنَّ أبي سيكون هناك، لوقت طويل للغاية، قد يبلغ القرون، بعدما يغيب كلُّ من كان حيًّا بزمان طويل. كانت الرحلة إلى المطار رحلة حزينة، وبعد أربع وعشرين ساعة من الهبوط في بوغوتا دخلت المستشفى للعلاج من التهاب في المثانة وجلطة دمويَّة في ساقي. فلعلَّ الأيَّام التي سبقت ذلك كانت أشدَّ

إجهادًا مما بدا لي.

ثلاثة أشهر فقط مضت على وفاة أمِّي، ويدهشني مدى السرعة التي تنامت بها منزلتها عندي. لا أستطيع أن أمرَّ بصورة لها دون أن أقضي لحظة في النظر إليها. يبدو وجهها أطيب وأجمل ممَّا بدا من قبل، حتى في الشيخوخة. عمر كامل من معاناة القلق (ربما دونما وعي بذلك)، لكنَّها برغم هذا كانت ذات قدرة هائلة على المتعة. كان لديها (شأن أبي) اهتمام لا يكلُّ بالحياة ذاتها وبحياة الآخرين. كانت مشاعري تجاه أبي، وإن تكن محبَّة، مشاعر معقَّدة بسبب شهرته وموهبته اللتين جعلتا منه أشخاصًا عدَّة كان لزامًا عليَّ أن أدمجها جميعًا في شخص واحد، فكنت دائم الوثوب ذهابًا وإيابًا بين مشاعر مختلطة. ثمَّة أيضًا مشاعر معقَّدة تجاه الوداع الطويل الأليم الذي تمثَّل في فقدانه الذاكرة، والإحساس بالذنب بسبب ما وجدته من رضا في الإحساس العابر بأنَّني أقوى منه عقليًّا. والمدهش أنَّ مشاعري تجاه أمِّي الآن أبعد ما تكون عن التعقيد. هذه من الأقوال التي تجعل المعالجين النفسيِّين يرفعون حواجبهم، لكنَّها صادقة. كانت تخاف التعبيرات الضخمة عن المشاعر، وفي طفولتنا كانت تحثُّنا على الصلابة. ولكنَّني مع الوقت بتُّ أفهم أنَّها ورثت تلك الحالة عن أبويها اللذين يرجَّح تمامًا أن يكونا قد ورثاها بدورهما. لم تكن تعرف أصلًا أنَّها ابتليت بذلك، وكنت كلَّما أشرت إلى أنَّها قد تنتفع بالعلاج النفسيِّ أو الطبِّي، رأيت منها ردَّ فعل واضحًا، «لا، لست مجنونة».

يسعدني أنَّني استطعت فهم هذا وهي لم تزل على قيد الحياة، وتقبَّلتُه، فلم يبق إلا المودَّة والافتتان بطاقة الحياة التي كانت تنبعث منها. كانت صريحة وكتومًا، انتقاديَّة ومتساهلة، شجاعة لكنَّها تخاف الفوضى. كان بوسعها أن تكون قاسية في إصدار الأحكام، ومكثرة من ذلك، لكنَّها سريعة الغفران وبخاصَّة حينما يفضي إليها شخص بمتاعبه. فهي حينئذ تأخذ صفَّه إلى الأبد

ويظفر بتفانيها. ومعي أنا وأخي، لم تكن تعبر عن مشاعرها جسديًّا، لكن نهجها معنا كان يتفجَّر بحنان، ظلَّ يزداد بمرور السنين. مؤكَّد أنَّ شخصيَّتها المركَّبة أسهمت في ولعي على مدار عمري بالنساء، وبخاصَّة عديدات الأوجه، متفجِّرات الطاقة، اللاتي يوصفن غالبًا، وظلما في رأيي، بصعوبة المراس.

عندي إعجاب متجدِّد بأبويّ. وأعترف أنَّ هذا المنظور (الذي قد يسمِّيه البعض مراجعة للنفس) ليس نادرًا. فالغياب يزيد المرء ولعًا وغفرانًا، وبه ندرك أنَّ أبوينا كانا كغيرهما من الناس، مخلوقين من طين. في حالة أمِّي، يدهشني كيف استطاعت، وقد ولدت حيثما ولدت وحين ولدت، أن تصبح الشخص الذي كانته، فتسيطر على نفسها بل وتصبح الآمرة الناهية في العالم الذي جلبه نجاح أبي عليهما. كانت ابنة عصرها، لم تتلقَّ تعليما عاليًا، وهي أمٌّ، وزوجة، وربَّة بيت، ولكنَّ نساء كثيرات أصغر منها سنًّا وأضخم منها حياة وأنجح منها مهنا كنَّ معجبات بها إعجابًا معلنًا بل وكن يحسدنها على ثباتها وقوَّتها وإحساسها بذاتها. كانت معروفة بين أصدقائها بـ لاغابا، وهو اسم تدليل مشتقٌّ من غابو، تدليل أبي، ومن ثمَّ فهو منسوب إلى الأب، لكنَّ كلَّ من عرفوها كانوا يؤمنون بأنَّها لم تصبح أيَّ شيء عدا كونها نسخة عظيمة من نفسها.

في مطعم قبل سنتين من وفاتها، حكت لي أمِّي أنَّ طفلين ولدا بعدها، وهي كبرى المواليد، وماتا صغيرين. اندهشت أنَّني لم أسمع ذلك من قبل. سألتها إن كان لديها أيُّ ذكريات عن ذلك، فقالت نعم. كانت تتذكَّر بوضوح أمَّها محتضنة طفلًا ميِّتًا بين ذراعيها. ومضت تمسِّد ذراعها اليسرى تريني ما كانت تفعله أمُّها.

سألتها «لماذا لم تحك لي هذا من قبل؟»

قالت «لأنَّك لم تسأل». ما أسخفني. بعد بعض الوقت سألتها مرَّة أخرى، مشتاقًا إلى المزيد من التفاصيل، فأنكرت، لم تقل فقط إنَّها لم تحك لي مثل هذه القصَّة قطُّ، بل قالت إنَّها لم تر في حياتها أخًا طفلًا ميِّتًا. بهتُّ. لم يكن ما أرى خرفًا أو شيخوخة. فقد بقيت ذاكرتها حديديَّة على الدوام. أصررتُ. فقالت منهية الحوار كله «لا، لم يحدث هذا قطُّ». تغاضيت عن الأمر في ذلك اليوم، وعزمت على الرجوع إلى ذلك اللغز مرَّة أخرى في المستقبل، عسى أن تكون الريح قد تغيَّرت، ولكنَّ الوقت نفد.

عشت أيضًا خمسين عامًا ولم أعرف أنَّ أبي لم تكن لديه رؤية في مركز عينه اليسرى، اكتشفت هذا حينما صحبته إلى طبيب العيون، وفقط لأنَّ الطبيب أشار إلى ذلك بعد الفحص.

أتمنَّى لو عرفت كيف كان أبواي يتذكَّران نفسيهما في شبابهما، أو لو كان لدي تصوُّر عما كانا يريانه بشأن موضعهما من العالم، قديمًا حينما كانت حياتهما محصورة في البلدات الصغيرة في طفولتيهما في كولومبيا. أدفع أيَّ شيء وأقضي ساعة مع أبي حينما كان وغدًا في التاسعة من العمر، أو مع أمِّي حينما كانت فتاة متوهِّجة في الحادية عشرة، وكلاهما عاجز عن تخمين الحياة الاستثنائية التي تنتظره. ولذلك، ففي أعماق عقلي هاجس بأنَّني ربَّما لم أعرفهما بالقدر الكافي قطُّ، وندم أكيد لأنَّني لم أزِد من سؤالهما عن تفاصيل حياتهما الدقيقة، عن أخصِّ أفكارهما، وأعظم آمالهما ومخاوفهما. لعلَّهما شعرا بمثل ذلك تجاهنا، فمنذا الذي يعرف أبناءه تمام المعرفة؟ عندي فضول جارف تجاه أفكار أبي في هذا الشأن، فأنا على يقين من أنَّ كلَّ بيت إنَّما هو مكان شديد الاختلاف لكلِّ واحد من أهله.

بانتظارنا قرار بشأن مستقبل البيت. لديَّ ولدى أخي حماس لزيارة متاحف كتَّاب وفنَّاني الماضي المنزليَّة، وغيرهم وأمثالهم من الناجحين

الأشقياء، لذلك نميل إلى هذا الاتجاه. مع ذلك يدهشني قليلًا أن أجد في نفسي عزمًا على فتح أبواب بيت أسرتنا لكلِّ من هبَّ ودبَّ. لعلَّها طعنة يأس غايتها الانتصار على مرور الزمن، أو لعلَّها على أقلِّ تقدير تعفينا من وجع الاضطرار إلى إخلاء البيت لبيعه للأغراب.

وفاة ثاني الأبوين أشبه بنظرك عبر تلسكوب ذات ليلة فلا ترى كوكبًا كان مشرقا على الدوام. اختفى، بدينه، بعاداته، بشعائره وتفاصيله الخاصة، دقيقها وعظيمها. والباقي أصداء. أفكِّر في أبي كلَّ صباح وأنا أجفِّف ظهري بالمنشفة بالطريقة التي علَّمنيها حينما رآني أكافح لتجفيفه وأنا ابن ست سنين. لم يزل يصحبني كثير من نصائحه. (وأحبُّها إليّ: سامح أصدقاءك، يسامحوك). أتذكَّر أمِّي كلَّما رافقت ضيفًا إلى الباب عند رحيله، فعدم القيام بذلك أمر لا يغتفر، وكلَّما صببت زيت الزيتون على أيِّ شيء. وفي السنين الأخيرة، ينظر ثلاثتنا إليَّ من وجهي في المرآة. وأسعى أيضًا إلى أن أسترشد في حياتي بقاعدتهما التي نادرًا ما تلفَّظا بها والتي لا يعتريها شك: إياك والاعوجاج.

كثير من ثقافة أبوينا باق بشكل أو بآخر في الكوكبين اللذين خلقتهما وأخي في أسرتينا. بعضه اندمج مع ما جلبته زوجتانا، أو ارتأتا أن تجلباه، كلٌّ من قبيلتها. ومع السنين، سوف يستمرُّ الانشقاق، وسوف تضع الحياة على طبقات عالم أبويَّ طبقات وطبقات من حيوات أخرى عيشت إلى أن يأتي يوم لا يبقى فيه على وجه الأرض من لديه ذكرى من ذكريات حضورهما المادي. أنا الآن تقريبًا في مثل عمر أبي حينما سألته عمَّا يفكِّر فيه ليلًا، بعدما تنطفئ المصابيح. ومثله، لم ينتبني القلق العارم بعد، لكنَّني بتُّ أكثر من ذي قبل وعيًا بالزمن. في الوقت الراهن، لم أزل موجودًا، وأفكِّر فيهما.

شكر وعرفان

أودُّ أن أوجِّه الشكر إلى:

زوجتي أدريانا وابنتيَّ إيزابل وإينيس

وبيا زوجة أخي، وابنة أخي إيمليا وابنيه ماتيو وجيرونيمو.

وأصدقاء أبويّ الكثيرين وموظَّفيهم،

والأطبَّاء والممرِّضات ممن أشير إليهم في الكتاب.

لويس ميغيل بالوماريس، ولويس وليتيسيا فيدوتشي، ومونيكا ألونسو، وكريستوبال بيرا، وصوفيا أورتيز، وديغو غارسيا إليو، وماريبيل لوك، وخافيير مارتن، ونينا بيبر، وآيمي ليبمان، وجولي لين، وبوني كورتيس، وبول أتاناسيو، ونيك كازان، وروبن سويكورد، وسارة تريم، وخورخي إف هيرناندیز، وجون وباربرا أفنيت.

صور

غابو في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. الغندور منذ الصبا

مرسيدس في السابعة عشرة
ذلك الوجه يقول كلَّ شيء.

في نهاية الستينيات

حين كان التدخين لم يزل مفيدًا لك

غونزالو، غابو، رودريغو

لوس أنجلوس 2008

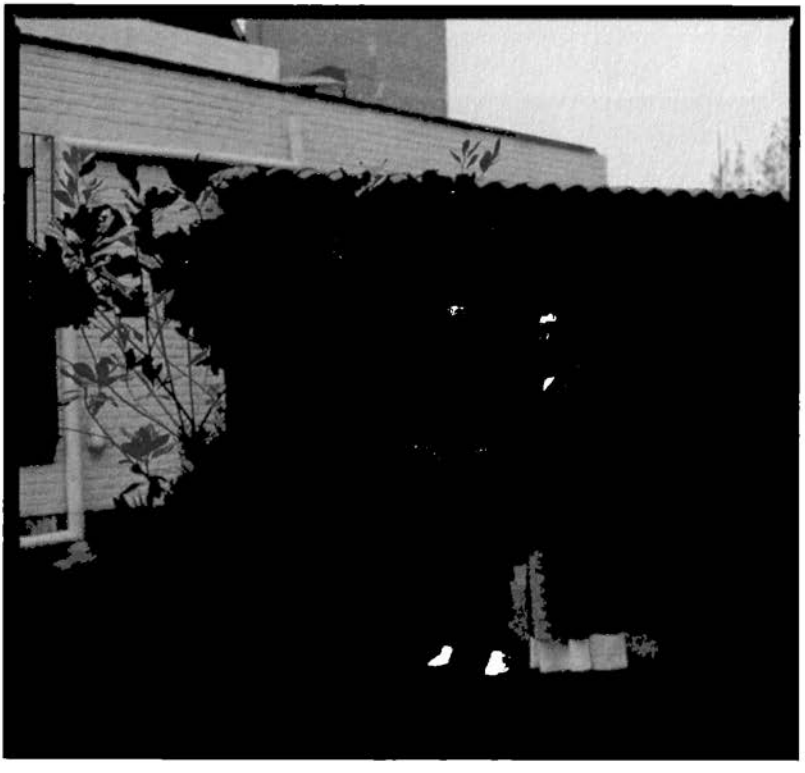

12 أكتوبر 1982

صباح إعلان جائزة نوبل

12 أكتوبر 2012

بعد ثلاثين عامًا، المكان نفسه، الشجرة نفسها

والثوب نفسه احتفالًا بالمناسبة

غابو في البيت، في قيلولة الثلاثاء

ملتحفًا بغطاء صوفيٍّ كولومبيٍّ كبير

احتفالًا بعيد ميلاد مرسيدس الثمانين

مع أخي غونزالو، وأسرتينا،

ومرسيدس، المعروفة أيضًا بـ التمساحة المقدَّسة،

والأمِّ المقدَّسة، والقائدة العليا

ذكرى غابو

نوفمبر 2020 - سنة الطاعون

تواريخ

1927

يولد غابرييل غارثيا ماركيز في 6 مارس سنة 1927 لغابرييل إليجيو غارثيا ولويزا سانتياغا ماركيز في أراكاتاكا بكولومبيا. هو أكبر الأبناء في أسرة كبيرة، يقضي سنواته الأولى مقيمًا في بيت جدَّيه لأبويه. جدُّه لأبيه، الكولونيل السابق، سيلهم غارثيا ماركيز لاحقًا بروايته القصيرة «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه».

1936

بعد وفاة جدِّه لأبيه، يذهب غارثيا ماركيز ليعيش في بيت أبويه بسوكري.

1940

ينتقل غارثيا ماركيز مع أسرته إلى مدينة وميناء بارانكويلا ويبدأ الدراسة الثانويَّة.

1947

يدرس غارثيا ماركيز القانون في جامعة بوغوتا الوطنيَّة. تنشر له قصَّتان قصيرتان في جريدة إل سبكتاتور.

1950-1948

بعد سنتين من الصراع السياسي في كولومبيا، تضطرُّ الجامعة الوطنية إلى الإغلاق بسبب أعمال الشغب. يرجع غارثيا ماركيز إلى بارانكويلا فيعمل هناك صحفيًّا. يبدأ كتابة روايته الأولى «عاصفة الأوراق».

1954

تعيين غارثيا ماركيز للكتابة في إل سبكتاتور. ينشر سلسلة مقالات تثير الجدل في كولومبيا حول بحَّار كولمبي نجا من غرق سفينة في أعالي البحار.

1957-1955

نشر «عاصفة الأوراق» سنة 1955. ينتقل غارثيا ماركيز إلى باريس ليعمل مراسلًا أجنبيًّا. في هذه الفترة يسافر إلى بلاد الكتلة الشرقيَّة ويكتب تقارير صحفيَّة عن مواضيع مختلفة.

1958

يرجع غارثيا ماركيز إلى كولومبيا. يتزوج مرسيدس بارتشا في بارنكويلا. ويبقى زواجهما حتى وفاته.

1959

يسافر غارثيا ماركيز إلى كوبا ليعمل صحفيًّا ويقوم بتغطية الثورة الكوبيَّة لحساب جريدة كولومبيَّة. تلد مرسيدس ابنهما الأول رودريغو.

1961-1960

يعيش غارثيا ماركيز في نيويورك لفترة وجيزة مراسلًا لوكالة أنباء برينسا لاتينا الكوبيَّة قبل انتقاله بأسرته إلى المكسيك. تصدر روايته «ليس لدى الكولونيل من يكاتبه» سنة 1961.

1966-1962

يولد للزوجين ابنهما الثاني غونزالو سنة 1962. يقضي غارثيا ماركيز ثمانية عشر شهرًا في كتابة «مئة عام من العزلة».

1967

تنشر **مئة عام من العزلة** في يونيو. يحقِّق الكتاب نجاحًا فوريًّا، وتباع منه ملايين النسخ في العالم ويلقى عنه غارثيا ماركيز الكثير من الثناء. تنتقل الأسرة إلى إسبانيا.

1975

نشر «خريف البطريرك».

1981-1979

يقسم غارثيا ماركيز وقته بين كولومبيا والمكسيك. يبدأ كتابة «وقائع موت معلن».

1982

يفوز غارثيا ماركيز بجائزة نوبل في الأدب.

1987-1983

تنشر «الحب في زمن الكوليرا» سنة 1985. يسهم غارثيا ماركيز في إنشاء مدرسة السينما الدولية في كوبا. تحول «وقائع موت معلن» إلى فيلم من إخراج فرانسيسكو روسي.

1989

نشر «الجنرال في متاهته».

1994

يسهم غارثيا ماركيز في إنشاء مؤسسة الصحافة الإبروأمريكية الجديدة لدعم الصحافة الديمقراطيَّة المستقلَّة في أمريكا اللاتينية.

1996

نشر كتاب «خبر اختطاف» وهو سرد غير خيالي لحالات اختطاف عديدة في كولومبيا قام بها تاجر المخدرات بابلو إسكوبار.

1999

يصارع غارثيا ماركيز سرطان الغدد اللمفاوية. تتراجع حدة الأعراض.

2004-2002

تصدر سيرته «أعيش لأحكي الحكاية» سنة 2002. وبعد سنتين تصدر روايته الأخيرة «ذكريات غانياتي الحزينات».

2012-2010

تتردَّد شائعات بأن غارثيا ماركيز يكتب رواية جديدة، لكن شقيقه الأصغر جيمي ينفي هذه الأخبار. يعلن للجمهور أن الكاتب يعاني الخرف ولم يعد قادرًا على الكتابة.

2014

وفاة غارثيا ماركيز في بيته بمكسيكو سيتي.

2020

وفاة مرسيدس بارتشا في مكسيكو سيتي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في وداع غابو ومرسيدس

نسج غابرييل غارثيا ماركيز، عبر عالمه الروائي الثري، نهايات عشرات الشخصيات، فمنها من انتهت مرفوعة إلى السماء، ومن تواطأت على نهايته بلدةٌ عن بكرة أبيها، ومن وشت بموته النسور، ومن حملتهما سفينة في نهر ظل يهدهدها إلى الأبد...

ولمَّا حانت نهاية ماركيز، وهبه القدر أن يكون ابنه هو كاتبها، ووهبه أن يكون هذا الابن متخصصًا في فن السينما الذي طالما خايل أباه، فتأتي النهاية في مشهدٍ بعد مشهد، كأنها، في آن واحد، فيلم مقروء مرئي، ووهبه أن يجمع كتاب واحد نهايته ونهاية زوجته مرسيدس، لتكون رفيقة موته مثلما كانت رفيقة حياته...

هذه، إذن، هي الصفحات الأخيرة في الرواية الاستثنائية التي عاشها ماركيز، ورواها، وخلَّدها، نقابله عبرها للمرة الأولى صامتًا، دون أن يعوق الصمت حضوره الطاغي، ولا الموت.

تصميم الغلاف:
أحمد الصباغ

مكتبة
t.me/soramnqraa